2274
.8874
.361

2274.8874.361
Sidqi
Mamlakat Allah

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 072236613

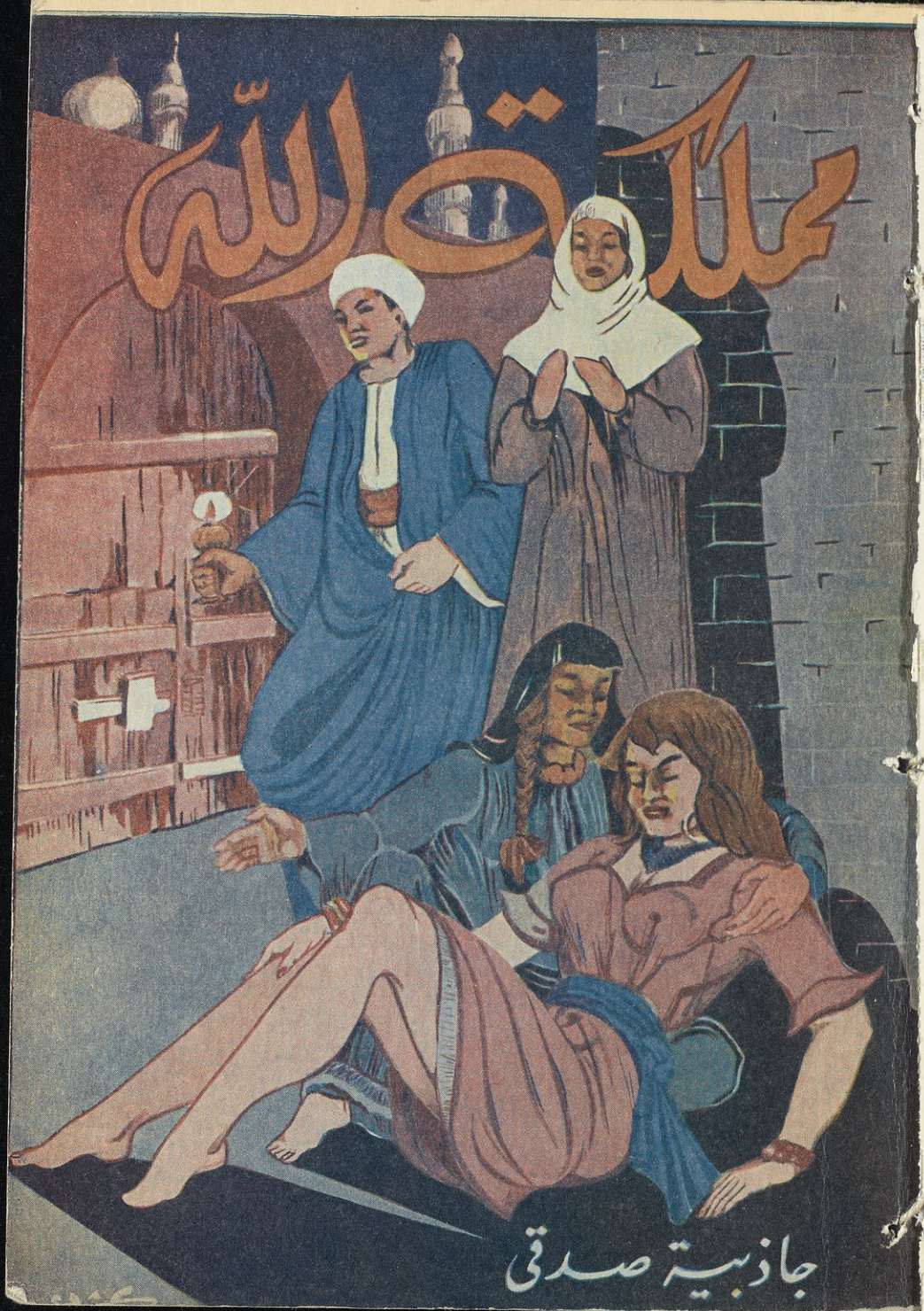

مملكة الله
جاذبية صدقي

الى المستشرق الكبير
الأستاذ "الدكتور ويدمار"
مع تحيتي وتقديري واحترامي
جاذبية صدقي

مملكة الله

وقصص أخرى

Djâdibîya Ṣidqî:
„Mamlakat-Allahi" u.
a. Erzählungen
Kairo 1954

فهرس

		ص
١	— مملكة الله	١
٢	— وخيم الظلام	٨٩
٣	— ريحان أغا	١٠٩
٤	— رنين الكأس	١٣٩
٥	— العفو الكبير	١٥١
٦	— صلاة الزين	١٦٩
٧	— رمال	١٩١
٨	— جن مصور	٢٠٧
٩	— الجنس الضعيف	٢٢٣

مؤلفات جاذبية صدقي

المطبوع :

مملكة الله : مجموعة قصصية

ريبب الطيور : قصة مطولة للأطفال

حكايات عم سند البواب : قصص للأطفال

تحت الطبع :

سكان العمارة : مسرحية كوميدية اجتماعية

جميلة : قصة اجتماعية من الريف

أليس الصبح بقريب ؟ : مجموعة قصص قصيرة

الأصل الطيب : مجموعة قصص قصيرة

Ṣidqī, Jādhibīyah

جاذبيّة صدقي

Mamlakat Allāh

مملكة الله

وقصص أخرى

مطبعة الاستقامة بالقاهرة
شارع نوبار باشا رقم ١٢

2274
.8874
.361

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة

[الطبعة الأولى]
١٩٥٤

الإهـــــــداء

إليـــه ....

خير رفيق .

وأوفى صديق :

إلى يوسف .... زوجى ؟

جاذبية صدقى

10-17-68

الصور بريشة الفنان : الأستاذ محمود كشك

مملكة الله

كانت « القاهرة » عصر ذلك اليوم تصطلى مستمتعة فى بحبوحة تحت أشعة الشمس الذهبية الدافقة ، وتتثاءب محاولة جهدها صدّ الكرى عن عيونها ؛ فقد كان يوما من أيام شهر « فبراير » يمتاز بصفائه ، يشع دفئًا لطيفًا يسرى فى الأوصال فتسترخى ويهدهدها حتى يسلمها إلى حالة تشبه الخدر الذى يسبق تلصُّص النعاس إلى الجفون ؛ فسارت العربات والمركبات فى الشوارع ببطء وكسل ، ونادى الباعة الجائلون ببضاعتهم مرة أو مرتين ثم أنزلوا أقفاصهم عن رءوسهم وأكتافهم ووضعوها على جوانب الطريق ، وألقوا بأجسامهم الفارهة الضامرة إلى جانبها وهم يبتسمون لأنفسهم فى رضا ، ويتمطون وأشداقهم تكاد تتمزّق من شدّة التثاؤب وتتابعه ، ثم يستسلمون لنومة هانئة تقصر أو تطول . فعلى الرغم من برودة الجوّ كانت الريح ساكنة ، والشمس تسطع بقوّة وأطراد فى الزرقة غير المتناهية المبسوطة فوق الرءوس .

جلست «ديانا» وقتئذ غضبَى فى ركن من أركان شرفة فندق «شبرد» المزدحمة تلاحظ الغادين والرائحين، وقد غاصت فى مقعد من الخيزران اتكأت بمرفقيها على ذراعيه، على حين اشتبكت يداها تحت ذقنها، وراحت أصابعها تنقبض وتنبسط فى ضيق وعصبية ضاغطة عليها، فتدفع شفتها السفلى خارجا، وتضفى على وجهها سيماء التقبض. وكانت إحدى ساقيها فوق الأخرى تترجّح فى ملل وبلا غاية، حتى إذا اقتحمت عزلتها نكتة خشنة أو ضحكة عالية أطلقها أحد أصدقائها المحيطين بها هوت «ديانا» بقدمها على الأرض متبرمة فى احتجاج صامت، ويمرّ على وجهها اكفهرار خاطف مرَّ سحابة شفافة على وجه القمر. وأخيرًا ضمت ركبتيها إحداهما إلى الأخرى ودفعت بهما نفسها بمقعدها بعيدًا عن المنضدة التى اجتمع حولها جميع أعضاء الفرقة الغنائية التى تنتمى إليها.

لقد ضاقت الليلة بهم ذرعا على قدر حبها لهم. فلم يكن مزاجها معتدلا لاحتمال هرجهم وهذرهم. كانت تشعر بملل وتعب. وكلٌّ يعرف معنى شعور «ديانا» بالملل والتعب. اختلسوا نظرات حذِرة إليها يقيسون مدى مللها ويستشفُّون نوعه. فلما أعيتهم الحيل فى كشف كنه حالتها، اتفقوا على أسلم الطرق، وتركوها

على هواها وحدها ، إذ قدّروا أنها على وشك الإصابة بنوبة من الصداع القاسى الذى يرهقها بين الفينة والفينة ويثقل عليها ولا يتركها إلا وهى نصف عمياء من الألم تلهث وتتصبب عرقا . وفيما عدا تلك الأزمات كانت « ديانا » دائما هى « ديانا » المرحة الضاحكة الطروب التى لا تحمل هما أو بالحرى لا تتحمله . تنحنى إذا ما سدّد القدر لها ضربة فتخف حدّتها أو تمرّ من فوق رأسها بسلام . فتلقى « ديانا » بنفسها لهْفَى فى أحضان الدنيا فرحة متشوّقة ، وتواصل حياتها ثانية بحيوية وإقبال عظيمين يلهمان من حولها مثلهما . حتى فى ساعات حرجها عندما تفتح كيس نقودها لتدفع ثمن سلعة اشترتها ، أو لتؤدّى دَينًا فات ميعاد أدائه وتقادم عليه العهد ، فتجده خاويا لا يحوى مليما ، لم تكن لتفارقها ابتسامتها الجذلة ولا روح الدعابة المأثورة عنها . فتتخلص بظرف وكياسة وتنزلق من بين فكّى الموقف انزلاق السمكة من يدى صائدها . كان إفلاسها الدائم موضع مرحها ومحور سخريتها . لم تكن المسائل المادّية لتشغل بالها ، ولم يكن اهتمامها بالمال إلا بقدر حاجتها إليه لساعتها . كانت بوهيمية النزعة قلبا وقالبا : بشعرها الغزير المتهدّل فى حلكته ، ووجهها ذى القسمات الشرقية ، وبشرتها التى تنافس قلب زهرة متفجّرة ندية ، وعينيها التى جمعت

بين ضدّين : جنة بخضرتها المأوّحة بالنعيم ، تضطرم فى أعماقها نار تلسع القلوب وتلظى الأرواح .

كانت عيوبها المتعدّدة محتملة هيّنة : طيش وإسراف وسرعة غضب . ولكن أكبرها الذى شهّر بها وكان نقطة الضعف فيها والثغرة التى تمكن حسّادها من تسديد سهامهم خلالها ، هو الاندفاع وراء نزواتها كمراهقة لا تفقه من شئون الدنيا شيئا . فعلى الرغم من سنيها الثلاثين كانت لا تقوى على الحدّ من رغائبها ولا كبح جماح غرائزها ، ولو خرجت بها من العرف وأبسط أصول الأدب واللياقة . فطار صيت استهتارها ، وتنوّعت مغامراتها ، وتعدّدت صبواتها التى كثيرًا ما انتهت بفضيحة أو ضجة فى أكثر من بلد من البلدان التى حطّت فرقتها بها الرحال فى أسفارها الكثيرة .

ومع كل ذلك كان لها قلب خيّر ينبض بالمشاعر الحيّة ، ويفيض بالعطف على زملائها ، وعلى كل من يتحايل على العيش بشق النفس . فتهب ما لديها لأىّ منهم فى أىّ وقت . وكثيرًا ما توقفت فى عرض الطريق ، وقد عاق بصرها بفتاة نحيلة شاحبة الوجه تبيع وردا ، أو تعرض أوراق النصيب ، وتجاهد فى جذب المشترين بابتسامة آملة مطبوعة على فمها قد ترهقها وتضنيها أكثر

من تجوالها بالورق ومن المماكسة فى البيع ، فتعطّل « ديانا » من معها حتى تشترى كل ما تعرضه الفتاة دون استثناء ، وتسخو فى العطاء ، ثم توزع ما اشترت عليهم . كانت العجوز المجدّة أو الرجل العامل أو فتاة كتلك تخطف لقمتها قسرا يوما بعد يوم من بين مخالب الزمن الضنين بها ، تلمس الوتر المرهف فى قلب « ديانا » ، فيهتز ، وتتجاوب أصداؤه بين جوانحها ، فتفيض من ذوب روحها قبل كسبها الشىء الكثير .

ولكنها كانت من جانب آخر ملولة متقلبة ، تتبرم إذا مرّ يوم كسابقه ، تحب التغيير وتعشق التنقل وتهوى المفاجآت ، كالفراشة ما تهبط على زهرة ـ وإن كانت أنضر ما فى خميلة ـ حتى تهيم باحثة عن غيرها ولو بين الحشائش . لا تنفك تبحث منقبة عن جديد يرضى عطش نفسها أو يملأ فراغ قلبها أو يشبع جوع روحها ، سواء تمخّض ذلك الجديد عن رحلة أو ثوب أو لون طعام لم تذقه أو رجل ... تفتح آذانها ووعيها جيدًا عن اليمين وعن الشمال لالتقاط أىّ وصف لمكان لم تزره أو قصة لم تقرأها أو شعور لم تجرّبه . إذا أعوزتها النصيحة تفتّق ذهنها هى عن كل غريب شاذ وإن اشتط فى شذوذه . وكان يعتريها ضيق بسبب وبدونه أحيانا جمة ، قد يستمرّ أياما أو يعمر ساعة كسحابة صيف رقيقة

تطوّح بها نسمة ناشطة وتتبخر إذ يتخللها شعاع النور .

كانت « ديانا » فى إحدى حالاتها تلك الغامضة المستعصية حتى على فهمها ، عصر ذلك اليوم من أيام « فبراير » الدافئة النادرة . وكانت شرفة الفندق الشهير تموج بوفود السياح والتراجمة وتغص بالباشوات والشبان الوارثين عن جِدَّة ، محبِّى الجمال الأجنبى . يفتل البعض الشوارب المصبوغة المقصَّصة ، ويمسح البعض الآخر على الشعور الناعمة المنمقة ، والجميع يتبخترون جيئة وذهابا ، ورءوسهم لا تستقرّ مكانها كأنما ركبت على لولب من كثرة الالتفات يمنة ويسرة ، علَّ العين تقع على واردة جديدة أو شاردة فاتنة .

وكان زملاء « ديانا » كثيرى الصخب والجلبة يثرثرون بلغتهم الفرنسية فى وقت واحد وصوت عال . يقهقه أحدهم حتى يكاد يستلقى على قفاه وهو يضرب أخاه على ذراعه معبرًا عن إعجابه بالملحة التى ألقاها . على حين يتعثر آخر فى إنجليزيته الركيكة وقد مال بمقعده إلى الوراء يناقش من فوق كتفه جارًا لهم على المائدة المجاورة . على حين يفخر ثالث بلفظ عربى التقطه من بائع جائل أو ماسح أحذية ، ويظل يكرّره بمناسبة ودون مناسبة حتى يضج رفقاؤه منه ويمجوا سماعه ، فيتكاثروا عليه

يملئون فاه بفضلات الخبز المتناثر على منضدتهم ويسدّونه ، فتعلو صرخاته المكبوتة الضاحكة وهو يستنجد ويركل بقدميه الهواء ويشير بعينيه وذراعيه أنه لن يعود إليه البتة . فلا يلينون ولا يهنون ويخزونه فى جنبيه زيادة فى التنكيل . فيخرج منديله الأبيض ينشره أمامه ملوّحا به معلنًا استسلامه . ثم يتماوت ويغرغر بحلقه محملقًا محوّلا بصره ؛ ولسانه متدلّ ، فينفضّون من حوله ضاحكين فى صخب ويلتفتون لسواه .

وقال رجل منهم قصير القامة ممتلئها يضيّق المرح عينيه ويشقّ فمه عن ضحكة جذلانة وهو يوجه حديثه إلى « ديانا » :

« أى ديانا ! ما هذا السكوت يا صغيرتى ؟ ما الخبر يا أجمل وردة ؟ أراك اليوم ذابلة . ترى ، أيرهقك حرّ الشرق ؟ » .

وأدار عينيه النفاذتين مشيرًا إلى الدنيا حوله .

فصاح به آخر طويل نحيف يدعونه « جاك » وهو يقفز واقفا :

« أفّ لك ! حرّ الشرق ! أتسمّى هـذا حرّا ؟ » ورمق « موريس » السمين بنظرة ساخرة : « هذا دفء يا غبىّ ! دفء يثير دماء الشباب ويجعلهم قلقين هكذا ، ولـكنه فى نظرك أيها الخنزير المعلوف حرّ مرهق لا يطاق يذيب الدهن عرقا يتصبب به لحمك ! آه يا إلـهى ! » .

وضرب جبهته بكفه فى حركة تمثيلية دراماتيكية ، وألقى بنفسه على مقعده ثانية . فصفق « موريس » السمين بشدّة وقال :

« مرحى ! مرحى ! حديث لبق والله أيها الجميل ! خطبة أخرى كهذه قد تلفت إليك نظر « ديانا » ! إنك تحاول جاهدًا منذ زمن بعيد يا صغيرى المسكين دون جدوى ! » وتنهد بحرقة : « أنت تستأهل بسمة على الأقل من الشفتين الناريتين إن لم تكن قبلة . أليس كذلك أيها العاشق الخائب ؟ » .

ومال على المنضدة ببطنه المكوّر يخرج لسانه القصير السمين فى وجه « جاك » الغاضب .

فضج الآخرون بضحك أهوج حادّ . فقد كان « موريس » ينجح دائمًا فى هزّ مشاعر الجمع وتسليتهم كلما أشار إلى حادثة القبلة المسرحية التى تبادلها « جاك » و « ديانا » ذات مرة ووضع فيها « جاك » من الشعور والحرارة أكثر مما تتطلبه المسرحية ، فأثار أعصاب « ديانا » حتى نسيت نفسها وصفعته وهما فوق المسرح صفعة كانت موضع تنادر أفراد الفرقة زمنا . وكان « موريس » يقوم بحركات تمثيلية معبِّرة وهو يلقى روايته للمرة الألف :

« وبينا المسرحية فى أوجها وأنا واقف وراء « الكواليس » ممسك بحبال الستار ، سمعت فجأة فرقعة كاسعة سوط . نظرت فإذا

« جاك » الجميل خارج يجرّ رجليه وخدّه الأيمن الذى أعرفه أصفر مورّد وموسوم بخطوط عرضية شديدة الشبه بأصابع اليد ! »

ثم تنحنح بمغزى واستطرد : « والحق يقال يا إخوانى لقد أضفى هذا اللون الوردى الجديد على وجهه بهاء ، حتى تمنيت لو استطاع جلب مثيله لخدّه الآخر ! » .

فثارت عاصفة هوجاء من الضحك المجنون ثانية يقودها « موريس » نفسه ، وهو يضرب فخذيه بذراعيه ، ويقفز طربا ، ويهز رأسه يمينًا وشمالا .

ثم لمح أحدهم الساقى الزنجى مارّا ، وعلى كفه صينية تكدّست عليها معدّات الشاى وأطباق الحلوى والفطائر ، فصاح :

« وَيْكَ يا ساقى ! » .

فلما لم يسمعه تمتم : « وَيْح لهذا الزنجى ! » .

فلما تنبه الساقى له واستدار نحوه يبتسم مستفهما ، وأسنانه الناصعة البياض تبرق وسط السواد المحيط كسنا الأمل فى حلكة اليأس ، قال له : « أسعفنا بمزيد من البيرة وربّك ! » .

فالتفتت « ديانا » إليهم يجذبها مرحهم ، ولكنها لم تشترك فيه . فإنها ذلك اليوم لم تشاركهم شيئا : لا الشراب ولا القتال على ما يصاحبه من عصىّ البطاطس الرفيعة المحمرة وحبات الفول

السودانى المملحة وشرائح الخيار الغارقة فى الزيت والليمون . لقد كانت « ديانا » تحب هذا الخيار حبا جما ، حتى كانت تسابق الجميع وتقابل الساقى وسط القاعة قبل أن يصل إلى منضدتهم ، وتخطف الصحن منه دون أن يستطيع أحد إنقاذ شريحة لنفسه . ثم تلقى برأسها إلى الخلف وتقذف بالشرائح اللينة اللذيذة إلى فمها قطعة تلو الأخرى ، وهى تعوى بنشوة لتضحكهم مقلدة كلب البحر فى وليمة سمك . لم تفعل شيئا من ذلك ، ولم تجلس كعادتها على حافة المائدة بعد الغداء وتنفش شعرها وتكشف ثوبها عن ساقيها واضعة يدًا على خصرها وتغنى أغنية بوهيمية من أغانى أوباش « باريس » أو أخرى فاضحة من نغم كاباريهات « نيويورك » يصاحبها « جاك » على « هارمونيكاه » التى لم يكن يتخلى عنها أبدا ، بل يحملها دائما أينما ذهب فى جيب سترته ، ويخرجها حيثما استقرّ به وبرفقائه المقام ، ويظل يعزف عليها لنفسه نغمات رقاقا لا تكاد تسمع ، وعيناه من فوق يديه المضمومتين إلى فمه تلاحظ كل ما يجرى حوله ، حتى إذا أومأت إليه « ديانا » اعتدل فى جلسته وانخرط فى العزف يتابعها فيما تغنيه .

كانا زميلين منسجمين - هو و « ديانا » - فى العمل . فكأنما شحنت موسيقاه الهيمانة بسنان دقيقة تخز شياطين كيانها .

فكأنما شحنت موسيقاه الهيمانة بسنان دقيقة تخز شياطين كيانها

فكانت إذا ما سمعتها ارتعش بدنها وتقلصت يداها فى حجرها، ثم انطلقت تشدو وتبدع حتى تنفر عروق رقبتها المرمرية وتقدح عيناها ذواتا البريق الفيروزى الخاطف لهبًا يتحدّى سامعيها ألا يخرّوا صرعى جمالها المثير ، وألا ينتشوا بروعة صوتها الذهبي ذى البحة التى تشوبه أحيانًا متسللة تلوّنه كحمرة الحياء فى خدّ عذراء .

فكان الرجال من النزلاء فى مرورهم داخلين أو خارجين من الفندق يقفون بغتة أمامها يحملقون فى وجهها ، مصوّبين إليها نظرات وَلْهى ، وينتظرون ساعات يحدوهم أمل ويدفعهم شوق . على حين يطاق الشبان منهم صفيرًا طويلا إعجابا وتحية .

أمّا النساء ـ العجائز منهنّ بخاصة ـ فكنّ يشحن بوجوههنّ جانبا فى امتعاض ويرمقنها استنكارًا متأففات ؛ حتى إذا مررن أمامها تحسَّرن بصوت عال على الأخلاق ـ أخلاق المغنيات الفاتنات ـ التى أفسدتها الحروب وانزلقت بصاحباتها إلى الحضيض . وردّا عليهنّ كانت «ديانا» تنفجر ضاحكة فى وجوههنّ الذاهلة . فيهرولن بعيدًا وهنّ يشمخن بأنوفهنّ ترفعا ؛ فتشيعهنّ «ديانا» بأغنية بذيئة من أوقح ما كتب عن الحب المكشوف الفاضح تحمرّ لها أقفيتهنّ العجفاء تحت الشعور الرمادية المعقوصة إلى أعلى .

فعلت « ديانا » ذلك ـ وأكثر . كانت روح الفندق وقلبه النابض . حيويتها دافقة تترع فتغدق بالفائض حولها يمينًا وشمالا . ولكنها يومنا ذاك كانت غيرها بالأمس ، طال انطواؤها على نفسها ، وازداد عبوسها بتقدّم الوقت ، وندر كلامها . صدّت كل من حاول التقرّب إليها من زملائها ليسرّى عنها بنظرة ألزمته مكانه .

فلما جاء الحاج « سليمان أبو شعبة » ـ الترجمان الذى اختارته الفرقة رفيقا ودليلا ـ بعد أن أدّى صلاة المغرب ، رفعت « ديانا » بصرها إليه وابتسامة تتلاعب على شفتيها لأول مرة ذلك اليوم .

كان الحاج « سليمان » شيخا خفيف الظل شديد الذكاء يزيل مجلسه الهموم عن القلب . يعرف متى يعى ما يقال ومتى يدّعى الصمم ومتى يتكلم ومتى يجمل به الصمت وماذا بالضبط يقول حين يجب القول . أحبه كلٌّ منهم حبا صادقا ؛ فما كادوا يرونه حتى قفزوا إليه يعانقونه ويخطفون عمامته ليميلوها على رءوسهم الشقر ويقلدوه فى مشيته .

ألقى الحاج « سليمان » نظرة خاطفة شملت الجمع أنبأته بالجوّ السائد . فسحب مقعدًا فى سكون قرّبه من « ديانا » وجلس وهو يبتسم محييا ويقول فى فرنسية طلقة صحيحة :

« مساء الخير يا بنت الشمس ! كيف حال أبيك القمر اليوم ؟ » .

فابتسمت لدعابته ، وتجاهل هو انقباضها وشحوب وجهها الظاهر ، واستطرد :

« جئت أدعوكم الليلة إلى حفلة لم تروا مثلها بعد ! » .

فعلت همهمة التأسف والاعتذار ، وتباكى « موريس » السمين صائحا :

« أوّاه يا حاج « سليمان » ! أوّاه ! مساكين نحن والله ! نأتى معك ؟ وماذا نفعل بالجنود المنتظرين ؟ لا بدّ من الترفيه عنهم كل ليلة كما تعلم ، نحن والله أشدّ ما نكون حاجة إلى ترفيه أنفسنا ؛ ولكن ماذا يستطيع المرء منا أن يفعل وهذا مطلب عيشه ؟ » .

أمّا « ديانا » فاستدارت إلى الحاج « سليمان » وقد برقت عيناها ووضعت يدها على ذراعه :

« سآتى أنا معك يا حاج ؛ لا أذهب إلى العمل الليلة ! » .

فبهت زملاؤها وهتفوا معا :

« ماذا ؟ لا تذهبين إلى العمل الليلة ! كيف ؟ » .

فأجابت بهدوء : « كذا » .

— « ولكن هذا محال ! » .

— « لا محال عندى ؛ قلت لا أذهب ولن أذهب ! » .

ونظرت إلى الحاج «سليمان» ووجنتاها متورّدتان ، وقد تبدّل حالها وذهب عنها الملل :

«خبرنى ياحاج ؛ أىّ حفلة ستكون ؟ أزواج أم ختان ؟ لقد حضرناهما ذات مرة ! » .

فأجاب الحاج وهو يعدّ حبات سبحته الكهرمانية :

«كلا يا بنتى ؛ لا هذه ولا تلك ، بل هى حفلة ذِكر نذرت وفاءها إذا ما نال ابنى «عبد الله» شهادته الأزهرية» .

فاتسعت حدقتاها دهشة :

«ألك ابن ؟ لم تذكر حرفا عن ذلك خلال الثلاثة الأشهر التى عرفناك فيها ! » .

فهز الحاج «سليمان» رأسه بتؤدة :

«لم أجد مناسبة ولا ضرورة للتحدّث عن نفسى وأهلى ولم تسألونى أنتم فسكتّ» .

فسألته «ديانا» مجاملة :

«وكم يبلغ من العمر ؟» .

وتطرّق بهما الحديث وتشعّب ، ونسيا مَن حولهما .

فتململ «جاك» وقد ضايقه عزم «ديانا» على التخلف فقال :

«ديانا يا عزيزتى ... أمّا تخلفك فمستحيل ، لا بدّ من ذهابك ! » .

فرمقته بنظرة ساخرة، وقد ارتفع حاجباها فى اهتمام مصطنع وتهكم :

« لا بدّ من ذهابى ؟ بربك أخبرنى ، من يُكرِهنى على ذلك ؟ » .

واكفهرّ وجهها فجأة واربدّ ، وصرخت تنفث فيه سموم ضجرها المكبوت طوال اليوم :

« لا تنفك أيها الرجل تخزنى بأوامرك وتثير أعصابى بمستحيلاتك كأنك أخى أو لك بى شأن . ألا تستطيع منع لسانك عنى ـ أم هذا مستحيل هو الآخر ؟ » .

فتداعى « جاك » وشحب وجهه ، ولكنه تمتم ليستر خجله :

« كل ما أودّ معرفته بماذا نعتذر عنك ؟ ماذا نقول لهم ؟ » .

فأخرجت « ديانا » بكل برود مرآة صغيرة من حقيبة يدها ، وراحت تصلح من شأنها لحظة ، ثم نهضت ويممت شطر السلم تهبطه إلى الشارع وهى تجرّ الحاج « سليمان » وراءها من كم قفطانه .

وعلى آخر الدرج التفتت وصاحت من فوق كتفها :

« قل لهم إنى مت أو انتحرت من ثقل دمك ! » .

وفى الطريق لوّح الحاج « سليمان » لسيارة أجرة تقلانهما إلى وجهتهما ، ولكن « ديانا » أسرعت تنزل يده المرفوعة قائلة :

« لا لا يا حاج « سليمان » ـ أرجوك ! لنأخذ الترام إلى غايتنا .

أريد أن أحيا الليلةَ فى جو وطنى - جو يختلف تمام الاختلاف عمّا أَلِفت ، علَّ روحى القلقة المتمرّدة تهدأ وتسكن ؛ تخيَّل أنى امرأة شرقية من قريباتك وعاملنى بالمثل » .

فوافقها الحاج « سليمان » باسما ، وهو يهز رأسه فى فهم وتقدير :

« لك ما تسألين يا بنتى ؛ أوّل ما آمرك به إذن هو أن تسترى وجهك بأى قناع » .

فصاحت : « هو ذاك ! » .

وألقت بوشاحها الحريرى الشفاف على رأسها ، فانسدل يخفيه كالنقاب .

فسار أمامها وتبعته مهرولة عن كثب .

وفى حىّ « الحسين » حَشَّا الخطىٰ مخترقين الحارات الضيقة والأزقة المتشعبة . وطرقت سمعهم همهمة ولغط ازداد علوا ووضوحا كلما توغلت « ديانا » ورفيقها فى صميم الحىّ . لم يقابلا فى بداية طريقهما إلا أفرادًا قلائل متعثرين ، بين امرأة عجوز تعرج جنب حائط ، وطفل يلهو وحيدًا على عتبة دار ، ومجدّ ما زال قائما يطوى بضاعته ويحشرها حشرا فى دكانه الضيق الذى قد تخطئه العين فى عتمة المغارب وتظنه شقا . وكانا كلما تقدما فى سيرهما ثقلت خطواتهما لتكتُّل جموع الناس تواليًا ، حتى إذا

بلغا بشق النفس ساحة المقام «الحسينى» المضاءة بمصابيح تترجّح على أعمدة خشبية لم يجدا موضعًا لقدم . فقد احتشد كل أهل الحىّ والجيرة بين متفرّج ومشترك فى التكبير والتهليل .

وأطلت النساء ساكنات البيوت المحيطة من النوافذ ، على حين احتلت أخريات ظهور عربات خشبية مستطيلة تجرّها حمير أو بغال وقفت بهنّ فى قافلة ترتكن إلى حوائط الساحة فى نصف دائرة كبيرة ؛ تربّعن يثرثرن وسط بنات يافعات ، وأطفال نيام ، ورضّع صارخين : تخرج أمّ أحدهم ثديها له فيلقمه لحظة ، وما تكاد تطمئن إلى هدوئه ورضاه ويراها هو تلهو عنه بالتفرّج أو الحديث مع جارة حتى ينفجر باكيا يضرب صدرها بقبضته الصغيرة لتنظر إليه ثانية ؛ فتلتفت نحوه لاعنة متبرمة ترمى نفسها بالعته إذ أنجبته ، ثم ترفعه من ذراعه وتهوى به على شقه الآخر ؛ فلا يهن ولا يلين ، فتضيق به أيّما ضيق ، وربما ضربته على فخذه ليسكت فتشتدّ حدّة بكاء الجنىّ الصغير ، ويعنف عويله ، فتعود المسكينة تهدهده وتقبله طالبة منه الصفح دون جدوى ، فتلطم خدّيها وتكشف ملاءتها عن رأسها وترفع بصرها إلى السماء داعية بالموت على نفسها مرة وعليه مرة أخرى ، حتى ينقذها من هذا الكرب بائع يحمل أصابع وحلقات من الحلوى الحمراء

والصفراء والخضراء مخططة وغير مخططة على لوح من الخشب ينحشر به بين العربات ؛ يغازل بنتا نافرة ، ويبسمل ويصلى على النبى باسما وهو يجيب نداء أمّها السمينة البيضاء ، ويبيع أخاها الطفل إصبعًا أو إصبعين ، فينحيه عن طريقه آخر يدفع بتؤدة عربة عليها إناء نحاسى هائل الحجم أهيل فوقه تل من الأرز والعدس المطهوّين معا ، وترتفع بعنقها إلى جانبهما زجاجة الخل والتوابل التى يرش منها البائع على وجه الخليط فى صحفة الآكل قبل أن يأكل .

ويفرقع بائع العرقسوس أو شراب الليمون بِصَنْجَيْه النحاسيين مناديا وهو يغمز بعينه :

« هنا الخير الأصلى ! اِرو قلبك يا جميل من عندى ! أنا بيّاع الشربات ! » .

فتجلجل ضحكات النساء من كلامه . فيشهق شهقة عالية ، ويتمايل كأنّ ذلك عن سكر من حلاوة ضحكاتهنّ ، ويقول :

« وعدى ! يا شربات ! أنا خدّام النبى ! » .

ويرفع حمار إحدى العربات رأسه عن مِخلاته فيلمح أتانا رشيقة تقف عن كثب تمط رقبتها نحوه وهى تضرب الأرض بأرجلها ضربا خفيفا ؛ فتهيج عواطفه وتثير كوامن نفسه ، فيعلو نهيقه وشَحِيجه بين الأصوات ، ويحاول الاقتراب منها وحك

رأسه برأسها ، فتهتز العربة بالنساء وتميل ، فيصرخن مذعورات ويمسكن برقاب بعضهنّ البعض مولولات مستغيثات بالسائق الذى يكون مفترشا الأرض فى جانب مع رفقائه يشدّون أنفاسا عميقة من قصبات « الجوزة » ، ويحتسون أكواب الشاى الأسود ؛ فيقفز مسرعا ويعدو إلى حماره لاعنا يضربه ويخزه وهو يحضه على التزام الحشمة كأنما هو من بنى البشر يفقه توبيخه وقذفه بقلة الحياء والأدب . ويسود السلام مرة ثانية ، ويعود السائق إلى زمرة شاربى الشاى ، وتتنهد النساء بارتياح ، ويواصل كلٌّ متعته على طريقته .

وكان الوافدون على الساحة المفروشة بالحصر لا ينقطع سيلهم ، حتى اكتظ بهم المكان على سعته ، منهم الشيخ والشاب واليافع ، المعمم والمطربش ولامع الشعر ومصففه تحت الطاقية الشبكية المائلة ؛ وإذا دققت النظر فى وجوههم تبينت اختلاف جنسياتهم من سحناتهم ؛ فقد دعا الحاج « سليمان » بعض معارفه الكثيرين من صينيين وهنود وتونسيين : تجار وطلاب علم بالأزهر الشريف زاملوا ابنه سنين ، وأصحاب مهن أخرى استوطنوا مصر من زمن وتوطدت الصلات بينهم وبين الحاج « سليمان » . كان الرجل منهم يشق بكتفيه طريقا يحشر فيه نفسه

ويظل يجاهد حتى يصل إلى دائرة المحتفلين ، فيفسحوا له مكانا بينهم على قدر المستطاع ، وهم يردّون تحيته بأحسن منها . فيخلع نعليه ويصلى ركعتين لصاحب المقام الذى يجتمعون فى ساحته ؛ ثم يضع إحدى نعليه فوق الأخرى ويجلس فوقهما ، وهو يلتفت إلى من بجانبه قائلا :

« أهلا وسهلا ! كيف الصحة والبيت ؟ » .

فيربت الآخر صدره شاكرا دون أن ينبس ببنت شفة ، إذ يكون منهمكا فى التسبيح . فيقلده القادم الجديد ، ويكرّر معه أو وراءه آيات الثناء على العلىّ العظيم والتكبير لاسمه الجليل .

أوصل الحاج « سليمان » « ديانا » إلى منزله المطل على ساحة المسجد « الحسينى » وسألها وهما على عتبة الدار :

« أتعبت يا بنتى ؟ إنّ الزحام شديد ! » .

وابتسم فى ظلام الدهليز رضًا وفخرا . فصاحت بحماس :

« بتاتًا لا ! » وجعلت تجيل بصرها حولها كى لا تغافلها فائتة دون أن تملأ منها ناظريها ، وقد برقت عيناها بنار خضراء دكناء أضفت من حرارتها على خدّيها تلهبهما بدم قان .

فانفرجت أسارير الشيخ وسار أمامها يقطع الطريق ميمما شطر السلم الحجرى العتيق المضاء بفانوس صغير يرتجف على

مسمار فى ركن من أركانه ، ويرسل نوره بهمَّة لحظة ثم ترقص ذبالته بجنون وتخفت ، حتى تكاد تنطفئ إذا ما داعبتها نسمة عابثة مرقت من الباب أو تلصَّصت إليها من عل . فتعثرت قدم « ديانا » وكادت تسقط ؛ فتوقفت مكانها ويدها على الدرابزين الخشبى تنتظر متردّدة . فأخذ الحاج « سليمان » بمرفقها يسحبها برفق ويحضها على الصعود ، قائلا :

« استندى إلى ذراعى يا بنتى . فهناك بضع درجات تأكلت حافاتها أعرف كلا منها كما أعرف أولادى ؛ فأُجنبك التعثر وأُوصلك بسلام وأُعرفك بأهل بيتى ؛ وإن لم يكن لديك مانع تركتك بعد ذلك فى صحبتهم ونزلت أنا إلى ضيوفى » .

وقبل أن تفتح « ديانا » فمها أردف بسرعة :

« ولكنى أرجوك إذا ما احتجت شيئا أن ترسلى « عمر » الصغير لندائى فألبى طلبك فورا ! » .

فابتسمت « ديانا » وهى تضغط ذراعه شاكرة :

« أنت كريم القلب يا حاج . ولكنى لن أبعث فى طلبك حتى تصعد أنت من نفسك بعد انفضاض الحفل ، إذ أنى على ثقة من تمضية سهرة بهيجة مع أهلك ! » .

كان منزل الحاج « سليمان » من منازل العهد الغابر بكل

خصائصها . بُنى بكتل من الحجارة الثقيلة ، وتتدلى وسط بابه الزان يد حديدية ممسكة بكرة علق فوقها تمساح محنط لجلب الرزق . وما يلج الزائر داخلا حتى تقابله رائحة بخور خفيفة لا يستطيع تحديد مكانها بالضبط تنبعث محومة مرحّبة . ويظلم المدخل حتى يضطر المرء إلى التريث لحظة ولو كان فى وضح النهار ، حتى إذا تعودت عيناه العتمة تبين زيرًا يكمن جاثما إلى اليسار فوق مقعد خشبى له ثغرة مستديرة .

ويتكون المنزل من طبقتين أجّر الحاج « سليمان » الأولى منهما غرفا مستقلة لعائلات فقيرة لا تدفع له الإيجار فى ميعاده أبدًا حتى تجمعت عليها مبالغ كبيرة . ولم يكن الحاج يطالبها قط بل يترك لأربابها دفع ما يتحصلون على جمعه بين الفينة والفينة وقتما يتيسر لهم ذلك . فحفظ النساء له جميله وفضله ، وجعلن من أنفسهنّ خادمات بالتوالى لعائلته ؛ يشترين ما يلزم من الخارج ويقمن بما يلزم من الأعمال فى الداخل من مسح سلّم وغسل ملابس إلى طهو الطعام وتنظيف الصّحاف .

صعد الحاج « سليمان » برفقة « ديانا » إلى الطبقة العليا إذن . فقابلتهما شابة سمراء حلوة القسمات أبرز ما فيها حاجبان رفيعان فى استقامة ، وعينان كحيلتان شديدتا الجاذبية تتكاثف أهدابهما

الطويلة عند الحافتين حتى يخيل للرائى أنهما مغلقتان . فانحنت وقبلت يد الحاج الذى جذبها بسرعة وهو يستغفر الله من فتنة الغرور . ثم تنحّت عن طريقهما وأشارت بذراعها تدعو « ديانا » إلى الدخول .

« أهلا وسهلا ! زارنا النبي ! » .

فابتسمت « ديانا » ترد التحية التى لم تفهم ألفاظها ، ولكنها تبينتها بالبديهة من إشراقة وجه الفتاة وحركاتها .

ثم جاء راكضا من الداخل صبيٌّ جميل الصورة يبلغ من العمر حوالى الخامسة طويل الشعر شيئا ناعمه ، ما رأى الحاج حتى اندفع نحوه يحتضن ساقيه بذراعيه السمينتين ، وقد رفع وجهه إليه فى حب وعبادة عميقين .

فربتَ الحاج الرأس المجعَّد ، وقال محدّثا « ديانا » :

« ذاك عمر الصغير ـ حفيدى ! »

وأخذه من يده يقرّبه منها وهو يهمس إليه :

« سَلمْ على السيدة يا ولد ! هى ضيفتنا الليلة ! » .

فالتفتت « ديانا » بسرعة إلى الشابة السمراء وقد استنتجت صلة القرابة :

« هى أمّه إذن ؟ زوجة ابنك ، أليس كذلك ؟ » .

فأومأ الحاج إيجابا واستطردت وهى تتفرّس فيها وتتأملها بعين الفنانة على ضوء المصباح الوحيد بالحجرة :

« تالله إنّ جمالها نادر يساير بعضه بعضا يكمله ويظهر إبداع صياغته ؛ وَىْ كأنها قصيدة مدبجة الأبيات أو قطعة موسيقية منسجمة النغمات : وجه كأنه محيا حورية أفلتت من الفردوس ، ورشاقة أعضاء مياسة كأوتار كمان تتماوج من نشوة حسنها ؛ نموذج فنى بديع صيغ بدقة ! » .

وكان الحاج « سليمان » يبتسم ويترجم للشابة ما تقوله « ديانا » بين وقت وآخر . فيتضرج وجهها وتطرق خجلى ويزداد ارتباكها .

ثم سألت « ديانا » الحاج : « وما اسمها ؟ » .

فقال : « بدرية ! » .

فردّت وراءه : « بدرية ، بدرية ! اسم له رنين موسيقى ووقع على الأذن ترتاح له ؛ ولكن قل لى ما معناه ؟ » .

فهز الحاج كتفيه فى حيرة وزمّ شفتيه مفكرا ، وأخيرا قال :

« إنه اسم مشتق من لفظ « بدر » ! » .

فوضعت « ديانا » يدها على قلبها وأدارت حدقتيها حولها ، ثم ألقت بنفسها على مقعد قريب فى حركة دراماتيكية ، وتصنعت الإغماء من قوة الافتتان ، وصاحت :

« صدق والله من سمّاها ! » .

فضحكوا جميعا ، وزال تهيُّب « بدرية » وضمت ابنها فى أحضانها ، ووقفت ترمق « ديانا » فى سرور .

« الله أكبر ! الله أكبر ! » .

جلجل صوت المؤذن عاليا يدعو إلى صلاة العشاء ؛ فهرول الحاج « سليمان » خارجا ، وتمتمت « بدرية » يمتزج صوتها بلثغة عمر الصغير :

« سبحان الله ؛ الدوام والعزة للعلىّ العظيم ! » .

ثم قاما وصليا ، هى أمامه على سجادة صغيرة من الخوص الأصفر والأخضر ، وهو وراءها وقد بسط منديلا محلاويا وراح يقلد حركاتها بجدّ واهتمام .

وجلست « ديانا » تلاحظهما باسمة لما فى منظرهما من طرافة جديدة عليها .

وضمّت « بدرية » كفيها ـ وقد فرغت من صلاتها ـ تستغفر الله وتسأله الرضا ودوام النعمة . وفعل مثلها « عمر » . ولما انتهيا قالت لها « ديانا » :

« كأنى بمنظركما أتأمل صورة للعذراء « مريم » وابنها دبت فيهما الحياة ! » .

فلم تفهم « بدرية » مما قالته إلا الأسم ، فصاحت :

« سيدتنا « مريم » ؟ عليها السلام ! » .

وأخذت بيد « ديانا » تحثها نحو الشرفة الفسيحة ذات المشربية المفروشة بالأرائك والوسائد الوثيرة . ودفعت إلى الخارج « شيش » إحدى النوافذ الصغيرة الكثيرة العدد ، وأشارت إلى « ديانا » أن تقترب وتطل على القوم .

كانت الساحة تموج بالمدعوين وقد هبُّوا كرجل واحد يجيبون دعوة الداعى إلى أداء فريضة الخشوع للملك الحق . فساروا جماعات ووحدانا نحو المسجد والبيوت المجاورة ليتوضأ منهم من أراد ويعود فيأخذ مكانه وراء الإمام . ثم خفتت الهمهمة وخرس كل صوت ، وساد سكون مطبق كأنه صدر عن إشارة ساحر ، وبدأت الصلاة . انحنت الرءوس وعنت الوجوه وخشعت الأبصار ورجفت القلوب فى الصدور وهفت النفوس بين يدى الله طامعة فى العفو والرضا ، وقد وقف المصلون صفوفا طويلة منتظمة وتساوت مرتباتهم وأعمارهم ، يقومون معًا ويخرّون سُجدًا معًا كالبحر المتلاطم فى تماوجه ، مدويا صوتهم الجهورىّ بترديد :

« الله أكبر ! الله أكبر ! » .

ثم ركعوا جماعة باسطين الأكف رافعين الوجوه نحو السماء ، يدعون تضرعا وخشية ، مبتهلين فى توسل ، يسبحون الله ويثنون عليه ، مرددين أسماءه الحسنى وراء إمامهم ؛ فتنطلق الكلمات من حناجرهم قوية إلى العلاء ، وما تزال ترق وتهن متضائلة كلما ارتقت تسمو مصعدة نحو العلىّ العزيز كأنما تشفق من رهبة القرب ، حتى تصل همسا ضارعا إلى السميع المجيب تتلوى منكسة الرأس فى تذلل متقربة فى زلفة إليه .

فشعرت « ديانا » وهى تستمع إليهم وترقبهم باهتمام متزايد ، تحصى حركاتهم ولا تفوتها سكنة ولا لفتة - شعرت بالدم يندفع إلى رأسها يلهبه ويثقل الجفون وينفر العروق نابضة ثم يغيض ثانية . . . فسرت قشعريرة من أسفل شعرها إلى عمودها الفقرى ، وارتدت عائدة تبعث بإشعاعات إلى كتفيها كالتموجات الكهربية . فأخرجت « ديانا » رأسها متحمسة من النافذة علّ شيئا يجدّ ، ومالت على حافتها حتى وسطها وقد دعمت ذقنها بكفيها فى الهواء تتابع القوم بنظراتها ، فخشيت « بدرية » عليها السقوط ، وربتت ذراعها تنبهها بلطف . فاستدارت « ديانا » نحوها دهشة كأنما نسيت وجودها بجانبها ، ثم ابتسمت وهى تمسح على جبهتها بظهر يدها كأنما تستيقظ فورا من نومها وقالت :

« لا تؤاخذيني يا « بدرية » . فلقد اندمجتُ اندماجا كليا فيما أمامي من مشاهد ؛ فأنا فنانة تستجيب روحي بالفطرة لكل جديد ملهم صادق في حرارته وتعبيراته ؛ ولقد بهرني ما رأيت ؛ إذ أني على كثرة أسفاري أذرع بقاع العالم طولا وعرضا لم أر في حياتي شعائر دينية معبرة كصلاتكم توحي بالرهبة من عظمة المعبود وجلاله ، وتبعث الطمأنينة في الوقت عينه سارية إلى النفوس لرحمته الواسعة بعبيده ومعرفته بضعفهم البشري ؛ فالركوع والسجود وضم الأكف ورفعهما تمثيل بليغ صامت يصور أمانيّ المرء ومخاوفه وخضوعه أروع تصوير . قرأت ذلك وأكثر على صفحات الوجوه . يا إلهي ! » .

وتنهدت من أعماقها ثم أردفت وهي تضغط ذراع « بدرية » وتدفعها لتنظر معها :

« انظري يا « بدرية » ! انظري إليهم يمسحون على وجوههم بأكفهم بعد الفراغ من الصلاة ؛ لماذا يفعلون ذلك ؟ لقد نسيت أنك لا تفقهين قولي . لأستنتج أنا وأحاول الفهم وحدي ؛ لا شك أنّ عملهم هذا للتبرك ، فطهارة أيديهم الضارعة إلى الله تستمدّ صفاءها من نفوسهم وهم متوجهون إليه . أليس كذلك ؟ على الأقل ؛ هذا تعليل يرضيني ريثما أستفهم من الحاج عنه » .

وأراحت رأسها إلى «شيش» النافذة وسرحت بأفكارها بعيدا، واستطردت تحدّث نفسها:

«أيُّ هدوء هذا وأى استقرار يتلألآن على وجوههم التى كساها الرضا ينبعث كالنور من جباههم الملس - لا غضون ولا تجاعيد! كأنى بهم يحطون أحمالهم تحت قدمَىْ إلٰههم وينسون فى مناجاته متاعبهم، فيمسح بيده الحنون على رءوسهم مطمئنا يستمع لشكواهم وأشجانهم يبثونها إليه، ويلهمهم حل عقدتهم، وينفث فيهم الصبر والمثابرة، فيقومون عن السجود وقد تساقط بعض نور يده على جباههم وانمحت الغضون بالسحر الإلٰهى. فيقبلون بروح فتيَّة نفث فيها الله من قوّته على حياتهم الشاقة المضنية التى يستخلصون فيها اللقمة من بين مخالب الزمن بشق النفس؛ فنتعجب نحن من هؤلاء الوطنيين كيف يصبرون ويصابرون على ماهم فيه من ضنك وإرهاق عيش ويبتسمون مع ذلك، ولا يزال ينبض فيهم عرق المرح والدعابة ويجيبون «الحمد لله!» على كل سؤال يوجَّه إليهم سواء استفهم المرء عن صحتهم أم دخْلهم أم عملهم أم مأكلهم. ألست على حق فى تحليلى هذا يا «بدرية»؟».

ثم تذكرت أنّ الشابة لن تفهم مما قالته حرفا، لأنها لا تعرف

لغات . فاستدارت نحوها ضاحكة تنعت نفسها بالغفلة ، فماتت الضحكة على شفتيها واتسعت حدقتاها دهشة .

لم يكن هناك أثر لـ « بدرية » ؛ فقد تركت « ديانا » تسبح فى عالم الفكر ، وتسللت لتعد لضيفتها إبريقا من الشاى وبعض شرائح الكبد المشوية وصحفة من الكعك والفطائر ، وأرسلت ابنها « عمر » وراء زوجها الشيخ « عبد الله » ليصعد ويرحّب بضيفتهم خلال فترة اشتغالها هى بإعداد صوانى العشاء للمدعوين قبل بدء الذكر .

ففوجئت « ديانا » برؤيته . فلم يقحم الشيخ « عبد الله » نفسه على وحدتها ومناجاتها ، بل تقدّم حتى وسط الحجرة ثم أحجم منتظرا وحبات سبحته ترتطم واحدة بالأخرى بين أصابعه ، وهو يسبّح ويرقبها باهتمام .

كان واقفا تحت المصباح المدلّى من السقف بسلسلة حديدية تترجح بهوادة وتؤدة بين الفينة والفينة . وكان النور يغمره بسناه من عمامته إلى خفيه الأصفرين ، وقد تشابكت يداه أمام صدره ممسكتين بالسبحة ، وبرز مرفقاه قليلا إلى الخارج . فانبسط كمّا القفطان الواسعان على جانبيه ، كجناحين لم ينضما مكانهما كل الانضمام . فبدا لعينىْ « ديانا » المشدوهتين كأنما هو ملك هابط

على الفور من عَلٍ . وزادت هيئته الصورة التى فاجأتها توكيدا ؛ فإن الشيخ « عبد الله » كان حديث السنّ لا يزيد عمره عن الثالثة أو الرابعة والعشرين وله سمة ابن الخامسة عشرة ؛ طويلا نحيف القامة ضامرها ، يكسو وجهه الجميل شحوب يكلل جبهته العالية منسكبًا على صدغيه الغائرين حتى ذقنه المستديرة ؛ وله وقار اكتسبه من طبيعة تعليمه الدينى ، وصفاء نظرة ، وهدوء ابتسامة ، أضفت عليه مجتمعة طهارة ملائكية تمس شغاف القلوب أوّل وهلة .

فتشبث نظر « ديانا » به يلتهمه التهاما ، وحملقت تفتح عينيها وتغمضهما تباعا بين مصدّقة ومكذّبة ، تخشى أن يتلاشى كالسراب عند القرب ، أو يتبخر كالحلم عند اليقظة ، فتسمرت مكانها تتأمله فى تبتّل بعين الفنانة وقلب المرأة .

وأخيرا ، تحرّك هو ؛ تقدّم خطوتين نحوها رافعا يديه إلى رأسه فى تحية وترحيب ، ويقول بفرنسية صحيحة :

« مرحبا ! لقد شرفتنا السيدة بزيارتنا الليلة ! » .

وابتسم لها .

فانتفض قلبها بين ضلوعها لإشراقة ابتسامته التى أنارت صفحة وجهه الغض الصبيح كلها ، وانفرجت لها شفتاه الغليظتان شيئا فى سذاجة محببة .

فأجابت « ديانا » بحرارة : « أنا السعيدة بلقائك ! » .

واندفعت بعواطفها الجامحة فى نزوة طارئة تمد له يديها كلتيهما ، ورأسها يدور وقلبها المتعطش أبدًا إلى المغامرة يطل من عينيها .

فغض الشيخ « عبد الله » بصره إلى الأرض ، وأغفل يديها الممدودتين ، وربت صدره معتذرًا بالوضوء عن مصافحتها . فاحمرّ وجهها وعضت شفتيها وهى تنزل ذراعيها إلى جانبيها ثانية . هذا الغلام ! كيف جرؤ ! لم يحدث قط أن استخف رجل بجمالها - وكل الرجال عندها سواء - لا يكاد يشع نور حتى يتهافتوا عليه كالفراشات الرعناء تحرّق أجنحتها وكأنما تستعذب حرّ اللهب فتلقى بنفسها فى النهاية إلى الهلاك . أمّا هذا ... هذا الطفل ! وصرّت « ديانا » بأسنانها بحنق متنبهة حواسها متيقظة غرائزها تتربص شباكها للصيد الجديد . لقد تعوّدت أن تختار رجالها لا أن يختاروها هم ، وجعلتها معرفتها الطويلة بهم سريعة البتّ فى اختيارها . ففى لحظة - ومضة عين - يهوى قلبها ويتلظى رغبة . ولقد اختارت الآن . إنها تريد هذا ؛ تريده بقوّة . وسيأتى ؛ سيأتى مختارًا طائعًا كسابقيه يستجدى نظرة ويستحلف لبسمة . لقد تعوّدت أن تأمر فتطاع وترغب فتحرز .

وتململ الشيخ «عبد الله» فى إحراج وحيرة ، وهى ترمقه بنظرات إعجاب صريحة نفذت إلى كل صغيرة وكبيرة فيه واستشفت كل خلجة منه .

فلاذ بالكلام يشغلها به مطأطئ الرأس :

«أتعرفين عن حفل الليلة شيئا يا سيدتى ؟ أرأيت حلقة ذكر قبل اليوم ؟» .

فأخرجت نفسها قهرًا من تأمّلاتها لتجيبه بشرود :

«من ؟ أنا ؟ كلا لم أعرف ؛ حدّثنى أنت» .

فأشار إلى أريكة يدعوها للجلوس ؛ فألقت بنفسها عليها تميل على فخذها اليسرى نصف نائمة ، وتركز خدّها على كفها رافعة إليه عينين نفاذتين تنتظران .

واتخذ هو مجلسا بعيدًا يواجهها على حشية من الحشايا ، وقبل أن يفتح فمه اقتحم الحاج «سليمان» عليهما الحجرة وبرفقته «عمر» الصغير وصاح فى وجه ابنه لائما :

«أأنت هنا يا شيخ «عبد الله» والقوم يسألون عنك ؟ لقد فرغوا من العشاء وهم فى انتظارك الآن ليبدءوا الذكر» .

فهب واقفا وأومأ برأسه فى اعتذار صامت «لديانا» وهرول خارجا ؛ فجلس الحاج «سليمان» مكانه فى حين قفزت «ديانا»

عن الأريكة ، وأسرعت إلى المشربية تطل على الشيخ « عبد الله » .

تحلقَ القوم فى حلقة الذكر صفين متقابلين ووقف وسطهما إمام المسجد الهرم يقود الجمع فى ذكر الله ، ويردّدون قوله بصوت أجش منخفض راتب . فلما علا بازدياد حماسهم واشتدّ تمايلهم تنحى الإمام لاهثا عن مكانه للشيخ « عبد الله » . فارتفع صوته الشجى باستغاثات وابتهالات يرتلها على وقع الذكر ، فتفيض الأعين بالدموع خشية وتهفو القلوب مرفرفة فى الصدور نشوىٰ طامعة فى كرم ربها وعفوه ؛ وتنطلق أغاريد النساء محيية مشجعة وهنّ يمسحن خدودهنّ المبللة .

وتسمرت « ديانا » فى النافذة وعيناها معلقتان بالشيخ « عبد الله » . ألهبت مشاعرها روعة جماله ، وأشعل غرائزها بُعد مناله ؛ تركزت حواسها وتمثلت مطالبها فيه ، فلم تر شيئا ولم تسمع شيئا ؛ أنساها وجوده سواه ، وكفاها عما عداه .

وإلى جانبها وقف الحاج « سليمان » يثرثر ، يلقى السؤال فلا تجيب ، فينتقل بمرح إلى آخر ، ويهمس فى أذنها بملحة فلا تتحرّك فيهز كتفيه ويضحك هو ؛ حتى تقدّم الليل ، وانفض الحفل ، وانصرف الناس تباعا ، وخلت الساحة منهم جميعا ، وأطفئت المصابيح المستأجرة وأخذها أصحابها ومضوا . وحملت « بدرية »

ابنها النائم ودخلت به حجرتها و « ديانا » فى وقفتها بعيون متلهفة وقلب ثائر .

وهبَّت نسمة من أنسام الفجر أرعشتها لسعة برودتها ؛ فاستدارت خلفها لترى الحاج « سليمان » يغط فى النوم على أريكة وقد التحف بعباءته الثقيلة .

فصاحت به تهز كتفه :

« يا حاج ! يا حاج ! أين الشيخ « عبد الله » يوصلنى إلى الفندق ؟ » .

فأجابها وهو يقفز واقفا :

« الشيخ « عبد الله » ؟ الشيخ « عبد الله » سيبيت الليلة فى المسجد قائما يصلى بقية الليل ، فهذا نذر كما تعلمين يجب عليه أن يوفى به » .

فرمقته بنظرة حنق ، وزمّت شفتيها فى كمد ، واندفعت خارجة من الحجرة ، والحاج « سليمان » يهرول خلفها ليوصلها بنفسه .

وطال تردّدها بعد ذلك على منزل الحاج « سليمان » . كانت إذا ما هاجها الشوق وبرّح بها الوجد اندفعت هاربة من حجرتها فى ثورة عواطفها الجامحة وقتما يخزها شيطان أهوائها - ظهرًا كان أو ليلا - وانفلتت متسللة من الفندق لا تلوى على شىء ، دون

أن يتنبه لها رفقاؤها . فتأخذ أوّل «ترام» يقابلها إلى حىّ «الحسين» وتشترى فى طريقها فاكهة كثيرة وحلوى وفطائر تنوء بحملها ، ولكنها تتجلد مستعذبة النصَب ، كمؤمن يتجمل بالصبر على العذاب فى سبيل عقيدته .

فكان الجميع يرحبون بها وعلى الأخص «عمر» الصغير لما تفيضه على مجلسها من بهجة وحبور ، ولما تدخله على قلوبهم من سرور بهداياها الفخمة المتنوّعة وسخائها البالغ طوال فترة زيارتها .

أمّا الشيخ «عبد الله» فكان يزمّ شفتيه فى حزم ، ويدلف إلى حجرته يغلقها عليه حين تطرق أذنيه الجلبة التى تصحب وصولها عادة من صياح ولده وتصفيقه ابتهاجا ، إلى عبارات المديح والترحيب التى تكيلها زوجته لها كيلا ؛ إلى هرولة أبيه يفسح لها طريقا ويفرش لها الحصير فى الشرفة ذات المشربية ، فلم يغب عن الشيخ «عبد الله» ميلها نحوه وتعلقها به منذ أوّل مقابلة لهما . فضحتها نظراتها الجوْعىٰ وحركاتها الداعية ونبرات صوتها تتهدّج وهى تحادثه أو تتحدّث عنه إلى أحد أفراد أسرته . فذهل بادئ ذى بدء ، وهاله الأمر ، فكذب نفسه ، وتجاهل استعطاف عينيها المبتهلتين ، وظمأ شفتيها المنفرجتين تلهفا كثمرة

تين شقّها النضج . وأصمّ وعيه عن نداء كيانها الصارخ فى جموحه ، فلم يفلح . لم ترتدع «ديانا» . زادها التجاهل هياما ، والفتور اشتعالا . صدّ عنها فتهالكت عليه . زجرها فترامت تحت قدميه . جافاها فطاش صوابها وجنّ جنونها .

فلاذ بربه مستنجدًا يسأله العصمة من الغواية . هجر البيت وأصبح لا يلجه إلا لماما فى غيابة الليل بعد أن يهجع الجميع فى مضاجعهم . أمّا النهار فيُمضى جله فى الأزهر الشريف مستزيدا من تعاليمه منقبا بين أسفاره ينهل ولا يرتوى . فإذا ما عاد يمم وجهه شطر المسجد «الحسينى» فيصلى العصر ، ويتخذ له مجلسا فى ركن قصىٍ ويسترسل فى التسبيح والتمجيد . فتزحف الأفكار إليه متلصصة تسعى باحثة عن ثغرة فى روحه تنفذ منها ، وتتجمع حوله كالغيوم فى تكاثف محوّمة تتربص به الفرص لتنقض عليه متضاربة تتجاذبه يمنة ويسرة . ويقبل عليه «إبليس» وقبيله يوسوسون فى صدره يسكبون فى أذنه معسول الكلم والوعد . فيرزح عقله البشرى تحت وطأة الهجوم ، ويكاد يتخاذل لولا بقية من عزيمة يطوّحهم بها عنه بعيدا ، وينتفض كالملسوع مستعيذا بالله من الوسواس الخناس ، وينطلق يجأر بترتيل القرآن فى صوت شجىّ يجلجل فى أرجاء المسجد فيحمله النسيم على أكفه الرقاق

عبر النوافذ والحوائط إلى المارّة فى الشوارع ، فيقفون حيث هم متلفتين حولهم ، كعبير المسك يفوح فيتنسم ريحه العباد ، حتى إذا تبينوا مصدر الصوت الرخيم نظر بعضهم إلى بعض يتشاورون فى صمت ما يلبثون بعده أن يتركوا ما هم فيه ، ويدخلوا المسجد يحيطون بالشيخ « عبد الله » يستمعون إليه ويقاطعونه مردّدين :

« الله يفتح عليك يا شيخ ! زدنا زادك الله من بركاته ! » .

لم يفلّ هذا من عزم « ديانا » . كانت ترسل أباه وراءه يستدعيه ، يلح عليه وما يزال به حتى يرجع معه . فيلبى طلبها مرة ويخذلها مرات . يختلق الأعذار للتخلف وتختلق الأسباب لحضوره . ظلا هكذا مدّة ليست بالقصيرة بين مدّ وجزر ، حتى ضاق بها ذرعا وعيل صبرها عنه . فألقيا معا بالأقنعة التى التزماها يقاتلان خلفها ، وواجه أحدهما الآخر سافرين .

كانت ليلة عرفت « ديانا » خلالها أنّ الحاج « سليمان » وأسرته ينوون عصر الغد عيادة مريض يمت لهم بصلة النسب يقيم فى حىّ « باب الخلق » . وكانوا وقتئذ يجلسون إلى العشاء مفترشين الحشايا حول الصينية الواسعة المستديرة . فشعرت « ديانا » بقلبها يغوص فى جوفها وبرغبة قوية فى البكاء . فتحيرت قطعة الكباب المغمورة

بالطحينة بين فمها ويدها التى ارتعشت مرفوعة فى الهواء وتوقفت . ثم تنبهت لها « ديانا » فرجعتها إلى الصحفة فى سكون وهى تغص بريقها وتغتصب ابتسامة أبت الخضوع فتملصت وشحبت قبل أن ترتسم على شفتيها . وغاض الدم فى وجهها وتركه ممتقعا ، ثم اندفع إليه ثانية بقوة يلهبه بلونه القانى ، وتمتمت هى ببضع كلمات تعلنهم باشتغالها أيضا فى اليوم عينه ، وبانتوائها التخلف تبعا لذلك عن زيارتهم .

فتلوى قلبها لكلامها بين ضلوعها يتخبط صارخا محتجا ويركل باكيا كطفل عنيد يأبى الإذعان . فضغطت « ديانا » بيدها عليه تهدئ من ثورته . فسألها الحاج « سليمان » وهو يلاحظها بعينيه الراقصتين ويمض قطعة فطير :

« أتشعرين بتعب يا بنتى ؟ » .

فزحزحت يدها بسرعة إلى معدتها وأجابته بمرح مفتعل :

« كلا يا أبت ! كل ما فى الأمر أنى امتلأت بطعامك الدسم ! » .

فضحك الباقون ، وناولتها « بدرية » برتقالة وهى تحضها على أكلها بنظرة من عينيها المعبرتين وهمهمة من فمها المملوء بالطعام . فأخذتها منه « ديانا » واتكأت على الحائط بظهرها ، وراحت تقشرها ببطء وتفكير .

أمّا الحاج «سليمان» وقد سرّه جوابها فقد مدّ يده وتناول شريحة أخرى من الفطير الساخن اللذيذ الذى ينضح عسلا وسمنا، لعقها ومسح شفتيه بلسانه علّ قطرة تكون عالقة بهما ثم أعمل أسنانه فى جانب الفطيرة، يقضم القضمة ويلوكها فى فمه بترقٍ متلذذا، ويتأمّل الفجوة التى أحدثتها أنيابه بإعجاب، ويقلب الفطيرة فى يده ذات اليمين وذات الشمال يمتع ناظريه بجميع وجوهها، حتى إذا فرغ فمه ملأه مرة ثانية وعاد يتأمّل الفجوة الجديدة، وهلم جرّا.

أمّا «ديانا» فاشتدّت المطاحنة بين عقلها الهزيل وقلبها العانى الذى تعوّد الارتواء أينما اختار وكيفما شاء. يخوض المغامرة واثقا من النصر الساحق، ثم يدوس بقسوة خارجا منها فوق مهاد من القلوب المكلومة سليما معافى لم تمسسه شرارة مما يسمونه الحب. أمّا أن يستهان به ويصطدم بقلب يصمد أمامه ويستعصى عليه بل يهزمه ويسحقه بدوره ويصبح هو الفارس المغوار فى كل جولة وصولة؛ يرجف وجدا ويطير فرحا ويغيض هما ويتلظّى هياما، فشىء جديد ...

لم تنم «ديانا» ليلتها تلك. ظلت تتقلب على فراش من جمر الهوى وتتلذع بنيران فؤادها المستعرة، حتى طلع الصبح وهى

فى حالة عصبية لم تمكنها من مغادرة فراشها . ومرّ النهار فلم تشترك « ديانا » مع أفراد فرقتها فى أكل ولا لهو ، تطفئ لفافة لتلقف غيرها ، وتعبّ الخمر عبًّا من زجاجة أمرت الخادم بإحضارها ، ثم أغلقت الحجرة خلفه على نفسها وأفكارها . تستلقى برهة على ظهرها فوق أريكة وبيمينها لفافة تحترق ببطء مثلها ، وبشمالها كأس مترعة ، ثم تنتفض واقفة وتقذف بهما جانبا وتروح وتجىء فى أرجاء الحجرة فى ثورة عاصفة تضرب رأسها بقبضتها وتلكم كفا أو فخذا . تتأمّل وجهها وقوامها فى المرآة وتخطر أمامها باسمة مرة ثم ترتمى على الأرض ضارعة بأكفّ مضمومة مرة أخرى تناجى خيال حبيبها وتسأله منّة ورحمة .

فلما كان الغروب دلف إلى حجرتها زميلها « موريس » السمين ، ووقف يتأمّلها مدّة طويلة . ثم دنا منها يحيط كتفيها بذراعه :

« أى « ديانا » يا صغيرتى ! حب جديد ، أليس كذلك ؟ » . . . فلما لم تجب أردف : « لا بأس . ولكن لماذا تفسدين حياتك من أجله ؟ سيمرّ كما مرّ سابقوه ولا تبقى إلا الذكرى ، ما تلبث هى الأخرى أن تشحب وتبعد حتى تزول ، فتشورى أنت إذا ذكّرك أحدنا به ! » .

فرفعت إليه نظرها مستنكرة . فأسرع يقول :

« لا تخافى . إنى أعرف كل شىء . لم أفه بحرف لأحد . ولكن أترينه يستحق كل هذا منك ؟ أتحبّينه إلى هذا الحدّ ؟ » .

فبرقت عيناها بلهب عات غاشم ، وهمست بصوت مكلوم كفحيح أفعى متوثبة :

« أُحبه ؟ بل أهواه ـ أعبده ـ أرغب فيه بكل ما فى بدنى من قوة وعنف ! » .

فهزَّ « موريس » رأسه ، ثم ألقى بقنبلته . سألها :

« وهو ؟ أيبادلك هوًى بهوى ووجدًا بوجد ؟ » .

فصرخت فيه والخمر تفوح من فيها :

« أتسخر منى ؟ » .

فربت شعرها معتذرا يهدّئ من روعها وقد فهم الموقف . وأردفت هى وبصرها عبر النافذة يتطلع إلى أفق بعيد :

« سيحبنى حتما . سأجعله يهوانى . يجب أن يهوانى . كلهم فعل وهو لا بدّ فاعل . هو صغير ـ صغير جدّا ـ طفل لا يفقه من الحب إلا الزواج ! » .

فقال لها « موريس » فى لهجة من يحتال لطفله :

« نعم ، نعم سيهواك بلا شك يوما . أمّا الآن فهيا بنا إلى العمل

الذى نأكل منه عيشا ، فإنّ الرئيس غاضب قد ضاق بتغيبك المتكرّر وتخلفك دون إبداء أسباب . ولقد هدّد أمس بفصلك إن انقطعت بعد ذلك » .

فصرخت تدق الأرض بقدمها :

« أبالعزل هدّدنى ؟ وافرحتاه ! أوَ جرؤ ؟ إذن قل له إنى مستقيلة . أريد أن أكون حرّة أحيا حياتى على هواى بلا قيد ، ولا أخضع لإنسان أئتمر بأوامره . قل له إنى لا أريد أن أرى وجهه الأغبر بعد اليوم ! أسامع أنت ؟ » .

فصاح « موريس » :

« أى « ديانا » ، « ديانا » ! أرجوك أن تتروّىْ ! أتستقيلين ؟ من أين إذن تأكلين ؟ وكيف تعيشين ؟ أتلقين بنفسك إلى هاوية الانحدار السحيقة راغبة ؟ « ديانا » ، أرجوك يا فتاتى ! » .

فخرجت عن طورها وصاحت به تدفعه نحو الباب :

« أنا فى تمام عقلى ومنتهى رزانتى . وسأفعل ما قلت . أما أنت فإذا كنت بحق صديقى فأحضر لى معك باقى مرتبى واضرب صفحا عن شئونى الخاصة . لا تزجّ بأنفك فيها فيخرج داميا ملكوما ! والآن مع السلامة ! » .

وصفقت الباب وراءه ، ورجعت إلى فراشها تترنح من ثقل

الخمر ! فألقت بنفسها عليه ، وماكادت تفعل حتى راحت فى سبات عميق ، استيقظت منه لتجد الحجرة تسبح فى ظلام دامس . فنهضت تتحسس طريقها إلى النافذة وفتحتها على مصراعيها ، وأخرجت رأسها منها علّ النسيم الرطب يخفف من حدة الألم الذى ينبض فيه .

كان الليل قد أرخى سدوله ـ وللّيل همساته ولمزاته ـ وأضفى على الكون شاعرية وخيالا يلهبان الأحاسيس ويوحيان بأرق المشاعر . وأطل القمر بحياء من وراء غمامة يرسل شعاعا ناعما مثيراً أشدّ حرارة من الشمس وأبعد أثرا . فرفعت « ديانا » وجهها إليه متبتلة كأنما هى كاهنة وثنية ، وأغمضت عينيها نشوى فى حين تدفق الدم حارا طاغيا فى عروقها ، واهتزت مجاوبة له فى انفعال . هبّت واقفة تفرك يديها فى عصبية وحيرة : « كيف أمضى ليلة كتلك وحيدة بين جدران أربعة ـ ليلة لم تخلق إلا للحب . أين حبيب الروح منى الساعة ؟ أواه يا قلبى ! أواه يا جسدى ! تعبدانه وتشتهيانه وهو أصم أعمى عنكما ! تكتويان بفتوره وتلتهبان ببروده ! تعيشان به وهو عنكما لاه ! أواه يا ربى ! »

كانت قد تعودت زيارتهم حتى أدمنت صحبتهم وصار لا يطيب لها مقام إلا بينهم . وعلى أمل رؤية الشيخ « عبد الله » أو الجلوس

إليه دقائق قد تمضى اليوم بطوله معهم متنقلة قلقة بين الأريكة والنافذة . ولكنه كان أملا على كل حال . أما أنها لا تذهب قطعا يوما . . دهرا بطوله ، فشيء محال ـ محال فوق الاحتمال ! ولكن . ماذا يمنعها ؟ اعتدلت « ديانا » فى جلستها وقلبها يخفق للسؤال الطارئ . نعم والله ماذا يمنعها من الذهاب ؟ ولو لتتنسم ريحه وتستنشق الهواء الذى مر على جبهته وتمتع ناظريها ببيته وإن غاب عنه ، وتشترى علبة من لفائفه المفضلة ، وتحادث عم « متولى » البائع عنه . ماذا يمنعها أو يضيرها ؟ بالعكس . ستهدأ أعصابها وتطيب نفسها . ويبرد غليلها شيئا . فأسرعت ترتدى ملابسها متأنقة فى اختيارها متزينة أبدع زينـــة . وتحلت بجواهرها وتعطرت وتنمقت وسمحت لخصلة نافرة من شعرها الحريرى أن تنفلت من عصابة رأسها المزركشة ، وتنزلق مترجحة فوق حاجبها الأيسر فى إغراء ودلال .

ثم تسللت كعادتها من الفندق ، ووجهتها حىّ « الحسين » .

لم يشرب الحاج « سليمان » قهوة العصر ذلك اليوم ، فقد خرج بعد أن تناولوا غداءهم على الفور مصطحبا « بدرية » وابنها . أما الشيخ « عبد الله » فتخلف إذ كان قد زار قريبهم المريض هذا عدة مرات على حدة . ولكنه خرج معهم وأوصلهم إلى « الترام »

حتى إذا سار بهم قفل قاصدا إلى المسجد حيث اتخذ مجلسا وسط زمرة من صحابه . وما زالوا يتذاكرون فى تفسير آية كريمة ، ويتناقشون فى تأويل أحد الأحاديث الشريفة حتى أذّن المؤذن لصلاة المغرب . فصلوها جماعة يؤمهم الشيخ « عبد الله » ولما فرغوا أقرأهم السلام ويمم وجهه شطر البيت تداعبه فكرة خلوّه وسكونه . طالما تمناهما من زمن ! السكون والوحدة ! لاحت فى مخيلته أمسية هادئة يمضيها وحيدا بعد أن يفتح نوافذ المشربية كلها ويوقد السراج ، ثم يتربع فوق الحشية الناعمة يقرأ أو يكتب وبجانبه صحفة من الترمس اللذيذ يؤانسه ويذهب وحشته . فإذا ثقلت جفونه وتسلل النعاس إليهما تمطى فى بحبوحة واستسلم له مرحبا سعيدا .

اشترت « ديانا » علبة من لفائف التبغ ، وتحدّثت إلى العم « متولى » بعض الساعة وردّت التحية ذاهلة على امرأة أو اثنتين من الجيرة ، ثم سارت متنقلة بين الأزقة والحارات تطوف بالبيوت تلمس جدرانها هامسة مسائلة تكاد تنطق بقول المجنون :

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

تتنهد عن فؤاد منفطر يعتصر اعتصارا وتنتزع الزفرات حارّة من أعماقها تمزقها وتزلزل كيانها . تلسع دموع الوله عيونها

المحدقة ، وتخنق عبرات الجوى حلقها وصوتها . حالها كحال الشاعر حين قال :

أنا والله هالك آيس من سلامتى
أو أرى القامة التى قد أقامت قيامتى

ثم حملتها قدماها إلى بيت الحاج « سليمان » . فتوقفت أمامه مشدوهة تكذب بصرها وضربات قلبها تدوّى كقرع الطبول فى آذانها . أحق ما ترى ؟ أم خيّله عقلها المتعب وروحها العطشى ؟ أنور هذا الذى يتلألأ فى المشربية الحبيبة ؟

طرقت الباب بيد ترتعش ، ففتحت لها امرأة من الساكنات تعرفها ، ضحكت فى وجهها مرحبة ، وفسحت لها الطريق وهى تشير إلى الطبقة العليا :

« الشيخ « عبد الله » موجود فوق وحده ! تفضلى . تفضلى . لن يمرّ كثير حتى يرجع الحاج « سليمان » و « بدرية » ! » .

فاستندت « ديانا » إلى درابزين السلم الخشبى ، حتى ملكت شتات نفسها ، ثم صعدت إليه بخطى متئدة وأوصال مرتجفة . وحيدا . أىّ فرصة ! أى هبة إلهية ! طالما انتظرتها ! طالما ابتهلت من أجلها ! وحيدا ! حبيبى ! مُنَى الروح وحبة الفؤاد ! وحيدا ! وحيدا ! وحيدا !

طوت « ديانا » الدرجات على وقع ترديد قلبها ، حتى وصلت لاهثة تنصبب عرقا . فدفعت الباب ودلفت بتلصص من حجرة إلى حجرة ، حتى بلغت المشربية حيث توقفت على عتبتها خاشعة كأنها فى حرم قدسى .

كان الشيخ « عبد الله » يختتم يومه ، يتمتم ببعض الآيات القرآنية التى تعوّد تلاوتها قبل النوم :

« لقد جاءكم رسولٌ من أنفسِكم عزيزٌ عليه ما عَنِتُّمْ حريصٌ عليكم بالمؤمنين رءوفٌ رحيمٌ . فإن تَولوْا فقلْ حسبيَ الله لا إلٰه إلا هو عليه تَوكلتُ وهو ربُّ العرشِ العظيم » .

« صدق الله العظيم » .

ومسح على رأسه ووجهه . فوقع بصره فجأة على « ديانا » تتلألأ كنجم هبط من السماء فى أجمل حلة وأبدع زينة ، وتتفجر أنوثة وروعة كأنها جنية انشقت عنها الأرض ، يطل قلبها من عينيها ضارعا ، ويختلج كل عضو فى جسدها رغبة وهياما .

فتسمرت حدقتاه بها كأنما هى شبح صَوَّرَه خياله المرهَق وجسّمته عواطفه المكبوتة . فظل محدّقا فى صمت يتأمّلها بعينيه العميقتين الأمينتين على سرهما ...

ورأت « ديانا » فى وجهه الشاحب المرفوع إليها بهاء وسناء

يجذبانها ويقيدانها كفراشة تحوم باحثة عن نور ، فتجده يشع وسط ظلام دامس ، لا شيء عداه هناك يؤانسها ، ولا شيء سواه هناك لروحها شفاء .

فانحنت بحرارة لهفى ، وأخذت وجهه الوسيم الغض بين كفيها ، وهوت بشفتيها المحمومتين تضغط على شفتيه . ثم ألقت بنفسها بين أحضانه تمرّغ رأسها فى صدره وتضربه بقبضتيها ضربات خفافا كأنما تهيب بمشاعره أن تستيقظ وبحواسه أن تجاوبها ، وهمست بصوت يتحشرج انفعالا :

« هيت لك ! » .

فانتفض الشيخ « عبد الله » فى ذعر كأنما سقطت فى أحضانه رقطاء تتلوّى ، وطوّح بها جانبا ، وهبّ واقفا وهو يصيح :

« وإمّا ينزغنّك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم » .

فتشبثت « ديانا » بذيل قفطانه ودموعها تسيل وجدا وكمدا . فاستدار نحوها وبصره عالق بالسماء ، وهمس فى صوت مضطرب :

« سيدتى ، أعرضى عن هذا واستغفرى لربك . إنّ الله واسع المغفرة ! » .

فتلوّت على الأرض تزحف نحوه ، وأحاطت قدميه بذراعيها :

فتشبثت «ديانا» بذيل قفطانه ودموعها تسيل وجدا وكمدا ...

« أستغفره ؟ لماذا ؟ بل قل أحمده ! لقد وضعك فى طريقى ، هدانى إليك ، أُحبك وأهواك ، وأجد فيك سكن قلبى بعد طول بحث وتقلب . أواه يا حبيبى ! » .

فانحنى يخلص قدميه من قبضتها . فتخلت عنهما بغتة ، وأطبقت فى لمح البصر على عنقه تجذبه إليها . فاختل توازنه وهوى أرضا إلى جانبها .

وهبت نسمة معربدة صفعت السراج فانطفأ ...

وهلل « إبليس » ورقص وقبيله طربا . ثم تكاثروا على الشيخ يلجمونه ويكبلونه . يخزونه بسنان حرابهم النارية ، ويلهبون جسده بفحيح أنفاسهم الجهنمية . فشعر بالدم يتبلور فى عروقه كفتات الزجاج ، وأحس بدبيب نمل يسعى فى لحمه . ودار رأسه وساخت الأرض تحته . ودوى فى أذنيه طنين مصمّ لأصوات منكرة تدعوه إلى الوليمة ، تحضه عليها تارة ، وتسخر من تهيبه مقهقهة تارة أخرى . تصوّر له الخطيئة فردوس لذات ، فيه من البهجة والأنس مسرات . تمسخ طهارته ضعفا ، وتنعت تمسكه بالفضيلة بلها ، وترمى قلبه الأمين بالبلادة ، فتحاملت روحه مستميتة وأطلت زائغة العين من وسط الدوامة الجارفة تجأر مستغيثة ، كغريق يقاتل تيارا عاتيا يستقوى تباعا على حين تتضاءل مقاومته

وتضعف . ورفع الشيخ بصره مرة أخيرة نحو السماء تتجاوب بين أضلعه ضراعة « يوسف » :

« وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين » .

فاستجاب له ربه ، وعصمه فى اللحظة الحاسمة ، وأنزل الخشية منه على قلبه بردا وسلاما بعد أن همّت به وهمّ بها . فدفعها عنه بعنف وتقزز ، ودموع الفرح تطفر من عينيه مدرارا ، وجمجم وهو يشهق ويشرق بالنحيب :

« الحمد لله الذى يطهرنا ويزكينا ويمنع عنا الرجس ! » .

وهب واقفا ينشد الباب يبغى فرارا . فجن جنون « ديانا » وقد أفلت الطائر وكان من فخها قاب قوسين أو أدنى . فصرخت صرخة نكراء ، وألقت بنفسها عليه ثانية تتعلق بقفطانه فى استماتة ، فجذب نفسه بعيدا بحزم ، فانشق الثوب نصفين . فأخرج ذراعيه من أكمامه بسرعة ، وترك قفطانه يسقط فوق وجهها ، وولى هو هاربا من حجرة الفتنة يستعيذ بالله من شياطين الإنس قبل الجن .

وجلجل أذان العشاء يشق دياجير الظلام كسيوف البرق . فهرول الشيخ « عبد الله » لائذا بالمسجد منفوش الشعر مشعث الملابس . وطال سجوده ، وامتد سهاده إلى الفجر قائما يصلى

مستغفرا مسترحما .

وأمر أهل بيته منذ ذلك اليوم بالإقلال من ترحيبهم « بدياتا » فوجموا . سألوه إيضاحا ، فصمت . كرروا السؤال ، فتنصل . فلما ألحوا لمعرفة السبب الذى يحدوه على إغلاق الباب فى وجه من أغرقتهم بفيض كرمها ثار على غير عادته ، وأصر صاخبا على تنفيذ رأيه دون إبداء أسباب .

وجاءت « ديانا » لزيارتهم فى الغداة . فقابلتها « بدرية » على رأس الحارة حيث وقفت تنتظرها ، وقادتها من يدها وهى تبتسم لها مرحبة إلى منزل جارتهم « أم فلفل » ، فسارت « ديانا » معها فى استسلام تسألها بين الفينة والفينة باسمة :

إلى أين تأخذينى يا « بدرية » ؟ .

فلا تفهم « بدرية » بل تتسع ابتسامتها وتربت كتفها تطمئنها . وفى منزل « أمّ فلفل » لحق بهما الحاج « سليمان » . فتعلقت عينا « ديانا » به مسائلة :

« ما الخبر ؟ أجدّ شىء ؟ » .

وتضرّج وجهها ، وحبست أنفاسها ، وآذانها مرهفة .

فهز الحاج « سليمان » رأسه بأسف وتمتم :

« أنا يا بنتى والله لا أعرف كيف أبدأ كلامى . أرجو أن

تعذرينى فليس بيدى حيلة . يبدو أن ابنى جنّ أو مسّه طائف إذ أصبح وهو يصر على منع الناس من زيارتنا . ولست والله أدرى لهذا سببا ! » .

وهمست « بدرية » لحميها :

« أعتقد يا عمى أنّ الشيخ « عبد الله » ليس راضيا عن مهنة الرقص والغناء التى تحترفها السيدة « ديانا » . ولقد رأيته بالأمس يقذف من النافذة بقراطيس الحلوى والفاكهة التى جلبتها لابنى « عمر » وهو يهدر : « تالله إنّ قرشها لمدنس ! » .

وكانت « ديانا » تتبع حديثهم . فصاحت بالحاج « سليمان » وقد شحب وجهها وجفّ ريقها :

« ماذا تقول « بدرية » عنى وعن الشيخ « عبد الله » ؟ ترجمه لى ـ ترجم لى قولها ـ أرجوك ! » .

فحاول الحاج أن يراوغها ويتخلص من إجابتها ، ولكنها ألحفت تستحلفه بكل غال حتى أذعن .

فما سمعت قوله حتى تنفست الصعداء ، وتراخت قواها بعد توتر . ثم قالت :

« لقد ظننت ما هو أبعد . أمّا هذا فشىء هيّن . فإنى أنا أيضا لست راضية عن حالى وعملى . ولقد استقلت منه بالأمس

وأنتوى كسب عيشى عن طريق شريف ليرضى عنى الشيخ « عبد الله ! » . ثم أردفت زافرة : « وسيرضى ! » همستها لنفسها وعيناها تسبحان فى حلم جميل .

فصاح الحاج « سليمان » :

« استقلت ؟ أحقا تقولين ؟ أوَ من أجلنا ؟ » .

وانتفخت أوداجه غرورا . فأجابته « ديانا » بهدوء :

« لقد اشتريتكم بدنياى ، وفضلتكم على رفقائى ، ورجحت كفتكم أمام قلبى على عشيرتى ! » .

ولم تعد « ديانا » إلى الفندق إلا وقد استأجرت حجرة فى منزل « أمّ فلفل » ، رحيبة شاهقة ذات نافذتين تطل إحداهما على الفناء والأخرى على الشارع . وفى اليوم التالى جاءت بحوائجها وحقائبها ، واشترت حصيرة مزركشة الوسط برسوم خضر وسرير ذى أربعة أعمدة وما يتبعه من فراش . ثم نظمت مسكنها الجديد تعاونها « بدرية » و « أمّ فلفل » وأضفت عليه من روحها وفرنسيتها ما أحاله إلى عش فنان لا ينقصه الجمال ولا الشذوذ . فبينما تشمخ فى ركن زهرية يابانية دقيقة النقوش ذات عنق طويل أهيف كعنق الغزال ، إذ يواجهها فى الركن المقابل صحن نحاسى تقبع فوقه قلة فخارية مبخرة تترع بماء النيل . وبينما تكمن

إلى جانبٍ أريكةٌ بلدية غطاؤها مزركش بورود فاقعة اللون ، تتدلى من فوقها لوحة فنية رائعة تمثل نفرا من الخيالة فى عهد نابليون يتحادثون فى غابة ، منهم راجل ومنهم على صهوة الجياد .

واشترت بباقى مرتبها « آلة خياطة » وأعلنت فى الحى عن استعدادها لحياكة الملابس . فانهالت عليها العروض والطلبات من النساء ، كلٌ تريد أن تلبس ثوبا من صنع « الإفرنجية » كما أطلقوا عليها . فبسط عيشها ، وطاب مقامها . ولكن غرامها كان يستقوى عليها يبلبل أفكارها ويضيق خلقها ويلهب حواسها ، فتهجر حجرتها وتترك الأثواب على الأرض كما هى ، وتمضى النهار هائمة على وجهها تتفرس فى الوجوه محوّمة حول بيت حبيبها .

واستمع الشيخ « عبد الله » مطأطئ الرأس غارقا فى الفكر إلى زوجه تروى أنباء « ديانا » بحماس ، وسبحته التى لا تفارقه بين أنامله تحصى عليه ترديداته وتسبيحاته . وكان لا يعلق بشىء على ما يسمع . فإذا سألته « بدرية » عن رأيه فى الخطوة الحاسمة التى اتخذتها صديقتها ، والتضحية التى تحملتها من أجلهم ، تمتم وهو يشيح بوجهه :

مالنا ولها ! هداها الله . الله يتولى عباده ! » .

ولكنه تجنب فى دخوله وخروجه من الحىّ المرور أمام

منزل « أم فلفل » . إذ كانت غرفة « ديانا » فى الطبقة الأرضية . وقد زوّدت قاعدة النافذة العريضة المطلة على الشارع بحشية واتخذتها مجلسا مختارا تلاحظ منه الغادين والرائحين ، ولا تفوتها فائتة مما يجرى فى الحارة والجيرة بأ كملها . إلى أن كان يوم زار فيه الشيخ « عبد الله » نفر من العلماء وأساتذته فى الأزهر الشريف . دعاهم ليتناولوا العشاء عنده ، و يتناقشوا فى بعض الأمور المتعلقة برواقهم . فلما هموا بالانصراف صحبهم إلى الشارع وسار معهم يحمل مصباحا ينير لهم به طرقات الحىّ المتعرّجة . وقد أراد فى سيره أن يتحاشى الحارة التى تقيم بها « ديانا » ولكن كبيرهم اندفع يدخلها قائلا :

« من هنا أقصر طريق يا شيخ « عبد الله » ! لا تنس أنى ولدت ونشأت فى حىّ « الحسين » رضى الله عنه ! » .

فصمت على مضض ، وتبعهم فى استسلام . حتى إذا كانوا أمام دار « أمّ فلفل » وكانت ليلة حارّة ثقل فيها الهواء وتكاثفت رطوبته ، رأوا « ديانا » تقف على عتبة الباب تلاحظ ضاحكة جمعا من الأطفال يلهون ، وقد ارتدت ثوبا فاضحا هفهافا متقلص الأكمام لا يكاد يصل إلى ركبتيها ، وتستدير فتحة عنقه وتتسع حتى يظهر أعلى نهديها النافرين . وعقصت شعرها الحالك إلى أعلى

بشريط أحمر فاقع ، وانتعلت حذاء صيفيا ذا شرائط رفيعة حمر - صورة رائعة أخاذة للجمال الفاجر .

فوجم العلماء وتوقفوا لحظة ينظرون إليها شزرا ، ثم التفتوا إلى الشيخ « عبد الله » مسائلين :

« مَن هذه الفاجرة ؟ » .

فعبس وقطب جبينه وهو يجيب :

« دخيلة أجنبية يدعونها فنانة » .

وأنزل يده بالمصباح ليدرأ عن وجهه النور . ولكن سبق السيف العذل . فقد لمحته « ديانا » فهتفت من أعماقها باسمه كما يهتف المرء مناديا ربه بعد طول نأى . وركضت إليه فى لهفة وشفتاها منفرجتان تتحرّقان شوقا ، وعيناها والهتان تفيضان هوى . وألقت بنفسها تحتضن ذراعه ضاغطة بيده على قلبها .

وذهل الجمع . وشحب وجه الشيخ « عبد الله » وجنّ جنونه . فدفعها عنه بوحشية ، كأنما هى بَرْصاء يرهب عدواها ، فارتطمت بالجدار المقابل وسقطت على الأرض .

وتابع سيره مع ضيوفه ، وهو يتمتم :

« قطط مسعورة ! أعاذنا الله ولطف بنا ! » .

وأوصلهم إلى « الترام » ومراجل غضبه تغلى ، وعاد

من الطريق عينه وفى نفسه أشياء . فوجد حفنة من النساء ملتفات حول « ديانا » تنضح إحداهنّ وجهها بالماء ، وتدلك أخرى قدميها ، وثالثة كفيها ، فاقترب حتى حاذاهنّ ؛ فتطوّعت امرأة مسنة بالإيضاح :

« وجدت « الإفرنجية » مغشيا عليها جنب الحائط والأطفال حولها حيارى . فناديت « أمّ فلفل » و « أمّ شربات » لنسعفها » . ثم تمصصت شفتيها وأردفت : « مسكينة والله هذه المرأة ! » .

وفتحت « ديانا » عينيها ، وراحت تنظر إلى الشيخ « عبد الله » نظرات ذليلة خاضعة آنًا ، متبتلة آنًا آخر . فضم عباءته حوله بإحكام كأنما يخشى عليها التلوّث ، وقال لها بالفرنسية :

« ألا تقلعين عن غيك ؟ لقد صبرت عليك ورضيت بجيرتك ، إذ ظننت أنّ الله قد منّ عليك بالهدى . ولكنك تماديت وأضلك الشيطان ، حتى لم يعد هناك بدٌّ من تدخلى . قسما بالله إن لم تلزمى حدود التحشم والدين - إن كان لك دين - لأحاربنَّك حربا شعواء ، حتى يرجمك الناس المغشوشون فيك بالحجارة والطين ! أتعين ما أقول ؟ » .

واستدار قافلا . فرفعت نفسها على مرفقيها منادية تقبِّل شفتاها الكلمات وهى خارجة من بينهما :

« عبد الله ـ حبيبى ! » .

فدار على عقبيه ، وقد طاش صوابه ، وتطاير الشرر من عينيه ، وبصق بصقة تحقير تطاير رذاذها فأصاب ذراعيها الممدودتين وفخذيها العاريتين . ومضى لا يلوى على شىء .

فقالت إحدى النساء تطيّب خاطرها :

« ما عليك يا بنتى . فما له بالنساء شأن » .

فأجابتها « ديانا » بعربيتها الركيكة التى بدأت تلتقطها على مرّ الأيام ، ودموع الحنق تسيل على صدغيها :

« هو يكرهنى ! » .

فقالت المرأة باسمة :

« لا أظنّ . كل ما فى الأمر أنّ طيورنا تجفل من الحسن المكشوف . وعلى الأخص هو . فإنه رجل طاهر كله بركة على الرغم من حداثة سنّه . ما عليك . خذى ـ خذى يا بنتى غطى نفسك ! » وخلعت المرأة عن نفسها ملاءتها وألقتها حول « ديانا » .

وعلقت « أمّ فلفل » على الحديث بلهجتها الزنجية :

« الجمال يا بنتى كالطعام ، إذا ترك فى العراء وخامر الإنسان شك فى حوم الذباب حوله عافته نفسه . رأس مال المرأة منا هنا عفتها . ويزنها رجالنا على هذا الأساس . وكلما بعدت على المنال

ثقلت موازينها . الرجل يتمسك بامرأته المحتشمة ولو كان نصيبها من الجمال كنصيبي ! » وأغرقت فى الضحك : « خذينى أنا مثلا ! والنبي يعبدنى زوجى المعلم « حنفى » عبادة ! والظلام أبى ، والليل أخى ! » .

وعت « ديانا » الدرس : « طيورنا تجفل . على الأخص هو . الجمال . الزواج . . . فتبدّل مظهرها . تمثلت بنساء الحىّ وحاكت لنفسها ثيابا كثيابهنّ القطنية ذات الأكمام الطويلة والصدر المستور ، وتعلمت أن ترتدى الملاءة السوداء وتلفها حولها بإحكام ، وتسدل على وجهها نقابا . وقللت من أصباغها وخروجها . أقنعها المنطق وإن حرّق أحشاءها . فاستمسكت شيئا ، وأغرقت قلبها فى عملها تبرد به حارّ عواطفها . وقصرت زياراتها على جاراتها : تمرض العليل ، وتسعف الملهوف ، وتهدئ الطفل العنيد ، تغسله وتطعمه وتساعد أمّه فى عملها ، وتسرع إلى غرفتها لحظة ما يعود أبوه . صادقتها البنات ، فعلمتهنّ أشغال الإبرة والحياكة . أحبتها النساء فأعطتهنّ جلّ وقتها .

وقرأتْ يوما فى جريدة فرنسية عن مسابقة لقصة تطرق موضوعا جديدا . فبعثت إليها بقصتها ـ مقتطفات من حياتها كراقصة تحط الرحال فى كل بلد فترة ، ومقتطفات من حياتها

الجديدة حيث حطت الراقصة الرحال آخر مرة ، واختارت المقام بعد طول مطاف ، وماتت لتبعث من جديد . وأطلقت على قصتها اسم « البعث » فنجحت نجاحا باهرا ، وفازت بالجائزة الأولى ؛ لطرافة روايتها ، وصدقها ، ودقة تصويرها . وأشادت بها الجريدة صاحبة المسابقة وصفقت . فشجعها ذلك على طرق هذا الباب بين حين وحين كلما احتاجت لمزيد مال . فأخذت ترسل إلى المجلات والصحف وصفا لمختلف النواحى الاجتماعية فى مستقرها الذى تبنته . صوّرت بقلمها الفنان حفلة سبوع وحفلة زواج وغيرهما من تقاليد القوم وعاداتهم . وأحيت على الورق شخصيات من الحىّ تستأهل التخليد كإمام المسجد ومنزلته فى قومه . وشيخ الحارة ، والمأذون ، وبائع العرقسوس العتيق بثيابه التقليدية ، و « أم بكير » بائعة المحشى وفتوّة الحى فى الوقت عينه ، و « أم بخاطرها » الخاطبة التى فاقت الساسة فى اللباقة وقوة الحجة والتوفيق بين الناس .

فوجدت الصحف الأجنبية المحلية والخارجية فى كتابات « ديانا » لونا طريفا جذابا . فراجت سوقها ، ووجدت هى لعواطفها منفثا . وأعانها كسبها من الكتابة والحياكة على العيش فى بحبوحة . ولكنها كانت كريمة ومبذرة . تغدق على جيرانها

ولا تمسك ، وتنفق فى وجوه الخير كالمحمومة تكفيرا وتقرّبا إلى الله الذى يعبده كل من حولها . يصلون له ويصومون شهرا طويلا مستعذبين الجوع والعطش ، ويفطرون على كسرة وعود فجل ثم يقبلون أيديهم ظهرا وبطنا يثنون عليه ويحمدونه . ذِكره على أطراف ألسنتهم يندمج فى كلامهم سواء أكان عن المرض أم الصحة أم الأولاد أم العسر أم اليسر . يهابونه ويعملون ألف حساب ليوم حسابه . فينزل سكينته على قلوبهم ويجزيهم هدوء نفس وراحة بال وقناعة ، ويتكفل بهم دنيا وآخرة .

فتفتّح قلب « ديانا » القلق المتخبط للنور يشق طريقا داخله حثيثا ، كسكين يقطع فى الأوهام المتكاثفة عليه كنبات اللبلاب ينمو فى تكاثف متراكما على الأسوار . فكانت تستمع للأذان يجلجل ، فتتجاوب أصداؤه داخلها يهزها هزا تكاد تنفطر به وقلبها يرجف وروحها تهفو . وانقشعت غيوم الشك والغموض الجاثمة على عقلها شيئا فشيئا وهى تلتهم عن اليمين وعن الشمال تعاليم الدين الواسع السمح . تتأمل وجها من الوجوه السمر المحيطة بها ، تبتسم شفاهه الغليظة دائما ، صافية عيونه القانعة دائما ، فتشعر بنشوة وانشراح ، وقد وقفت على سر هنائه المنبثق من أعماقه الذى طالما حيّرها ، ووضعت قدمها على أُولى درجات السلم

الثابت المرتكز على صخرة الإيمان الموصل إلى هدوء الروح واستقرارها . وتأثر حسها المرهف ببيئتها الجديدة الطاهرة المتسامحة المسالمة فجارتها . واستراحت نفسها لتلك الفلسفة الشعبية الواثقة فى اطمئنان : « أعط والله يعطى » المتغلغلة فى النفوس حولها ، فاعتنقتها وبزت فيها الجميع . فلم يكفها مال ، ولم يدم فى يديها إلا ريثما ينطلق منهما . فأخذت تعمل ليل نهار . تحوك طوال اليوم وتسهر شطرا كبيرا من الليل تنمق مقالة أو تتفنن فى سرد وقائع قصة .

ولكنها وسط دوامة العمل التى جرفتها ترهقها مختارة لم تنس حبها لحظة ، وإن هدأ من فورته شيئا اشتغالها بالدين . ككل جديد لديها يخفف من غلواء سابقه ولا ينتقصه . فأضحى غرامها بالشيخ « عبد الله » كنار الجذوة الهادئة فى ثبات يستعر حطبها بعد أن خفضت ألسنة لهبها . فلا يذكر اسمه أمامها أو يتحدث اثنان عن شأن من شؤونه حتى ترفع رأسها المكدود عن الطاحونة التى قيدت نفسها إليها تذيب فتات قواها وتنضب حيويتها الفائضة ، فتلقط الكلمات بشوق تتقوت بها بقلب خافق وعيون حالمة .

ومرت الشهور . وبلغت أخبار تحشمها وأعمالها مسامع الشيخ

« عبد الله » . فهز رأسه رِضًا . وبلغها ذلك ، فاستماتت فى إرضائه ، إلى أن قالوا له يوما إنها سقطت فريسة الحمى . وتردّدت « بدرية » على مسكنها تخدمها وتسهر عليها أسبوعا أو اثنين . ثم اشتدت عليها العلة وزاد الخطر على حياتها . وأيِسَ الطبيب الذى جاءوا به يعودها ، وقال للنساء حولها وهو يحك ذقنه فى حيرة :

« إنها لا تقاوم البتة كأنما لا تريد أن تعيش . إنّ مرضها ليس بالخطير ولا يستعصى على دواء ، ولكنها هى - هى بذاتها - تقف حجر عثرة فى طريق شفائها . كأنى بنفسيتها ساحة وغى يدور فيها القتال على أشدّه فيتداعى بدنها متهدّما من قسوة الحرب القائمة داخله » .

ورفع كتفيه وخفضهما ثانية فى استسلام ، ثم أردف مسائلا :

« أهناك ما يهمها ويملأها كمدا مستخفيا ينفث فى أحشائها سمومه ؟ أتراها تخفى سرا يثقل عليها فينضب معين قوتها ويفل من مقاومتها ؟ » .

فغضت « بدرية » بصرها ، على حين تضرّج وجهها المتعب وهى تجيب :

« لست أدرى يا سيدى . ولكنى أستحلفك أن تبذل أقصى

الجهد فى درء المرض عنها ، وأنا على أتم استعداد لخدمتها لا أتهاون ولا أعصى لك أمرا ! » .

وٱستشرَت العلة ، وأشرفت « ديانا » على الهلاك . تمضى النهار فى غيبوبة ، حتى إذا أسبل الليل سدوله ارتفعت حرارتها وثارت أعصابها فيكثر تقلبها يمنة ويسرة وتهذى بكلمات مبهمة بالعربية تارة وبالفرنسية تارة أخرى . وأضحت « بدرية » تلازمها لا تفارقها إلا إذا تسللت « أمّ فلفل » مكانها . فكانتا تحاولان جاهدتين تبين لفظ مما ينفلت من بين شفتيها القرمزيتين .

وفاجأت « أمّ فلفل » « بدرية » ذات صباح بقولها :

« لقد سمعتها تنادى الشيخ « عبد الله » . ترى ماذا تريد منه ؟ » .

فتبسمت « بدرية » وأجابت وهى تحاول مراوَغة نظرات المرأة النافذة :

« إذن سأناديه حالا . فربما ماتت المرأة المسكينة قبل أن توضح له بلغتها من أخبار أهلها شيئا » .

وانفتلت تركض من الحجرة .

ولكنّ الشيخ « عبد الله » أبى الذهاب إلى « ديانا » . وتردّد زمنًا وهو يجادل زوجه ، ثم لان أمام إلحافها وقام معها .

وجد « ديانا » فى غيبوبة كعادتها يكاد يجزم الناظر

إليها بموتها ، لولا رأسها تضرب به المخدّة بغتة ثم تسكن سكونا شاملا .

وقف الشيخ « عبد الله » يتأمّلها فى صمت لا تخلج فى وجهه عضلة ولا تنم قسماته الرزينة الصافية عن شعور . وركعت « بدرية » إلى جانب الفراش تهمس تكرارا فى أذن « ديانا » :

« ها هو ذا الشيخ « عبد الله » ! ها هو ذا الشيخ « عبد الله » ! الشيخ « عبد الله » ... « عبد الله » ... « عبد الله » ! »

فاختلج جفنا المريضة ثم سكنا . ولا شىء غير ذلك . فأعادت « بدرية » المحاولة ، فزفرت « ديانا » بحرقة مجاوبة وعيناها مغلقتان . فتشجعت « بدرية » وكرّرت ترديد الاسم تسكبه فى أذنيها هامسة بحنان :

« عبد الله ... عبد الله ... عبد الله .... » .

فتنهدت « ديانا » وسالت دموعها ساخنة من تحت جفنيها المطبقين . وتدفق سيلها . وكأنما أوجعت حرارته خدّيها وألهبتهما إذ فتحت عينيها بعد لأى متأوّهة تنظر حولها فى ذهول ساهمة . ثم تلوّنت نظراتها شيئا فشيئا بالانتباه واليقظة ، واتسعت حدقتاها وقد تشبثتا بوجه الشيخ « عبد الله » لا تحيدان عنه . ورفعت يدها بجهد تلمس ثوبه كأنما ليتأكد عندها وجوده

وثباته وعدم تلاشيه كما يفعل فى أحلامها ويتركها تتحرق بحمّى الوجد.

فدفعت « بدرية » زوجها تقربه من فراش المريضة التى تلاحقت أنفاسها، وحاولت النهوض، فانبثق العرق باردا يتصبب من جبهتها، وارتمت على ظهرها ثانية وشفتاها تتمتمان بأشياء كثيرة بكماء، قد تكون ابتهالا للحبيب الذى هويته فجافاها، أو دعاء للرب الذى عرفته فحاباها. وانهمرت دموعها وشرقت بها وهى تحاول الابتسام خلالها، فدفنت رأسها فى المخدة، واختلج بدنها مهتزا بنحيب قاس مرير.

وتركوها تبكى حتى هدأت، فسحب الشيخ « عبد الله » مقعدا جلس عليه، وبصره إلى الأرض لم يرفعه، حتى عند ما همست بصوت مرتعش:

« عبد الله . . . عبد الله . . . »

فحنى رأسه، وأسرعت حبات سبحته بعضها وراء بعض.

وتكرر نداؤها: « عبد الله . . . عبد الله . . . »

فقطب جبينه، وعض على شفته السفلى فى إحراج وحيرة.

ثم أردفت بضعف تلهث وعيناها مغلقتان:

« يدك ! يدك ! »

فتردّد ينظر حوله وقد ضاق بموقفه . فجذبت « بدرية » يده ووضعتها بين كفى المريضة التى أطبقت عليها بلهفة ، وأراحت خدها المحموم فوقها وهى تتنهد بارتياح من أعماقها وتبتسم ، ثم نقلتها تحت خدها الآخر . ثم وضعتها على جبهتها الملتهبة ، ثم على رقبتها النابضة ، ثم فوق عينيها المتعبتين . وأخيرا ضغطت بشفتيها عليها ترطبهما . واختاست قبلة أو اثنتين من يد تلك اليد التى تتشبث بها بكلتا يديها كأنما تخشى أن تفلت منها . وراحت تشمها وتمسح بها على وجهها مرارا وتكرارا وتقلبها على ظهرها وتقبلها ثانية .

فاستغاثت عينا الشيخ « عبد الله » بعينى زوجه . فأجابتاه أن تَحَمَّلْ ، فى حين أسرعت هى إليه وجثمت بقرب مقعده . فوضع يده الخالية على كتفها بحب وحنان وصبر على مضض من أجلها .

ومرت الدقائق تباعا حتى تمت ساعة وهما على حالهما . ثم انكسرت حدّة الحمى ، وهدأت « ديانا » وانتظم تنفسها ، واسترخت قسماتها المتقلصة وأعصابها المتوترة ، وأغمضت عينيها وكفه تحت خدها . فانتظر الشيخ وزوجه حتى عمق نومها واستغرقت فى سبات هادئ ، ثم انسحبا تاركيها فى رعاية « أم فلفل » التى تسهر عليها ليلا .

وفى غد عاداها معا - واليوم الذى تلاه - ثم تعود الشيخ « عبد الله » أن يمر على « ديانا » بعد ذلك آخر كل نهار قبل رجوعه إلى منزله . وتحسنت صحتها باطراد ، وزال عنها الخطر .

وقالت له يوما بحزن وهى ترمق ذراعيها النحيفتين وقد برزت عروقهما ، وترهل لحمهما :

« انظر كيف صرت وأصبحت ؟ » .

فتشبث بصره بالحصيرة ذات النقوش الخضر كأنما هى أهم شىء فى الوجود يجب دراسته والتفرّس فيه بإمعان ، وأجابها :

« أصبحت على أحسن حال بإذن الله . فالمرض طهارة الدنيا ، تصلى ناره الجسد فيطهر ويشف ، وتصقل الروح فتصفو وتسمو » .

— « ولكنى سأموت ! » .

— « لكل أجل كتاب . لا تأسى . ربنا موجود ! » .

— « ربنا موجود ! ربك أنت يا « عبد الله » ! هنيئا لك به ! ولكنى أنا ... أنا الضالة التائهة فى بيداء الحياة وخضم الرذيلة ! أنا التى لا رب لى ! ألمثيلاتى نصيب من تفكيره واهتمامه ؟ »

فتمتم : « كلنا عباده . ورحمته وسعت السموات والأرض » .

فضربت « ديانا » صدرها بقبضتها فى انفعال مسائلة بإلحاح :

« ولكن أنا ... أنا ! أتهمُّه حياتى البخسة التافهة ؟ أترانى وقد اقترفت كل معصية وارتكبت كل خطيئة أطمع بعدُ فى تسامحه وغفرانه ؟ » .

فرفع الشيخ « عبد الله » بصره نحو السماء قائلا :

« قلْ يا عبادىَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنَطوا مِن رحمةِ اللهِ . إنَّ اللهَ يغفرُ الذنوبَ جميعًا . إنه هو الغفورُ الرَّحيمُ » .

فهتفت « ديانا » بصوت متهدّج ، وعيناها تمتلئان بدموع سريعة :

« أحقا يا « عبد الله » ؟ أغفورٌ ربك إلى هذا الحد ؟ أكريمٌ الله إلى هذا المدى ؟ » .

فجاءها الصوت الهادئ يثلج صدرها :

« نعم . غفور ربى لا يصدّ تائبا صادق التوبة ! » .

فصاحت وهى تتحامل على مرفقيها وصدرها يعلو ويهبط :

« إذن اشهد يا « عبد الله » أنى تبت على يديك إلى ربك الذى هديتنى إليه ! ربك ـ ربى يا « عبد الله » ! » .

فرفع رأسه بدهشة يخالجه أمل :

« ربى ربك ... سيدتى ؟ » .

— « أجل ! أجل ! أيقبانى ؟ أيرضى بى تحت لوائه ؟ أيضمنى إلى زمرة عباده يشفى قلبى ويهدئ روحى ويملأ نفسى بنوره ؟ » .

فقال وهو يهز رأسه إيجابا :

« والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا اللهَ فاستغفروا لذنوبهم ، ومَن يغفر الذنوبَ إلا اللهُ ، ولم يُصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » .

وتعلقت عيناه - لأول مرة منذ عرفها - بعينيها ينظر إليها بحدّة فى صمت مستشفًّا دخيلتها . ثم سألها بصراحة صارمة :

« أعن عقيدة أم عن غرض تودّين اعتناق دين الحق ؟ »

وقبل أن تفتح فمها لتجيب ، رفع يده محذرا وهو يقول :

« إن كان عن عقيدة واقتناع فأهلا بك أختا فى الدين . وأما والله إن كان عن غرض لم تفصحى عنه ... » . واكفهر وجهه وأربدّ :

« فبئس ما انتويت . فإن الله غنىّ عن أمثالك الذين يمنون عليه بإسلامهم بين أمم من الناس يدخلون فى دينه أفواجا منشرحى الصدور طائعين مختارين . فينزل على قلوبهم السكينة التى تتطلعين إليها ويضع عنهم أوزارهم كما تطمعين ! »

فطأطأت فى انكسار ، وقالت بصوت ذليل :

« بل عن عقيدة والله أهفو إلى الدخول فى مملكة الله ، فى الإسلام - دينك يا « عبد الله » دينك الرحب الواسع الذى يحدّث العقل والوجدان ! دين « الله » الغفور الرحيم ! والسميع المجيب كذلك . عن تجربة عرفت هذا . فقد ناديته واليأس المرير يهصرنى هصرا وجأرت ضارعة إليه والظلام الدامس يحيط بى مطبقا علىّ . وكنت وحيدة أتخبط . تحتقرنى أنت وأمقت أنا نفسى . وكنت صادقة فى ابتهالى ، جادّة فى بحثى عن « الله » الذى يتحدث كل من حولى عنه . يتاظى قلبى ظمأ للارتواء بمعرفته والاحتماء بظله . فَلَبّى ربك يا « عبد الله » ندائى . وربّت رأسى مطمئنا . فاستقر عقلى واستدّ تفكيره . وأخذ بيدى يخرجنى من بحر الضلالة المتلاطم ويوصلنى إلى بر الأمان . وأظهر قبول توبتى بفتح أبواب الرزق الشريف أمامى . فشكرت واعتصمت . واليوم فى مرضى وقد قرب منى أكثر وأكثر ، وأغرقنى فى فيض كرمه وغفرانه ، وأحاطنى بقلوب تحبنى صادقة وتعطف علىّ مخلصة ، أريدأن أثبت شكرى له وأنضم إلى زمرة القلوب الحبيبة التقية نعيش معا مستظلين بظله الوارف . فلا تقفل باب الأمل فى وجهى « يا عبد الله » ! لا تطردنى من جنة الاستقرار الروحى التى تلوح

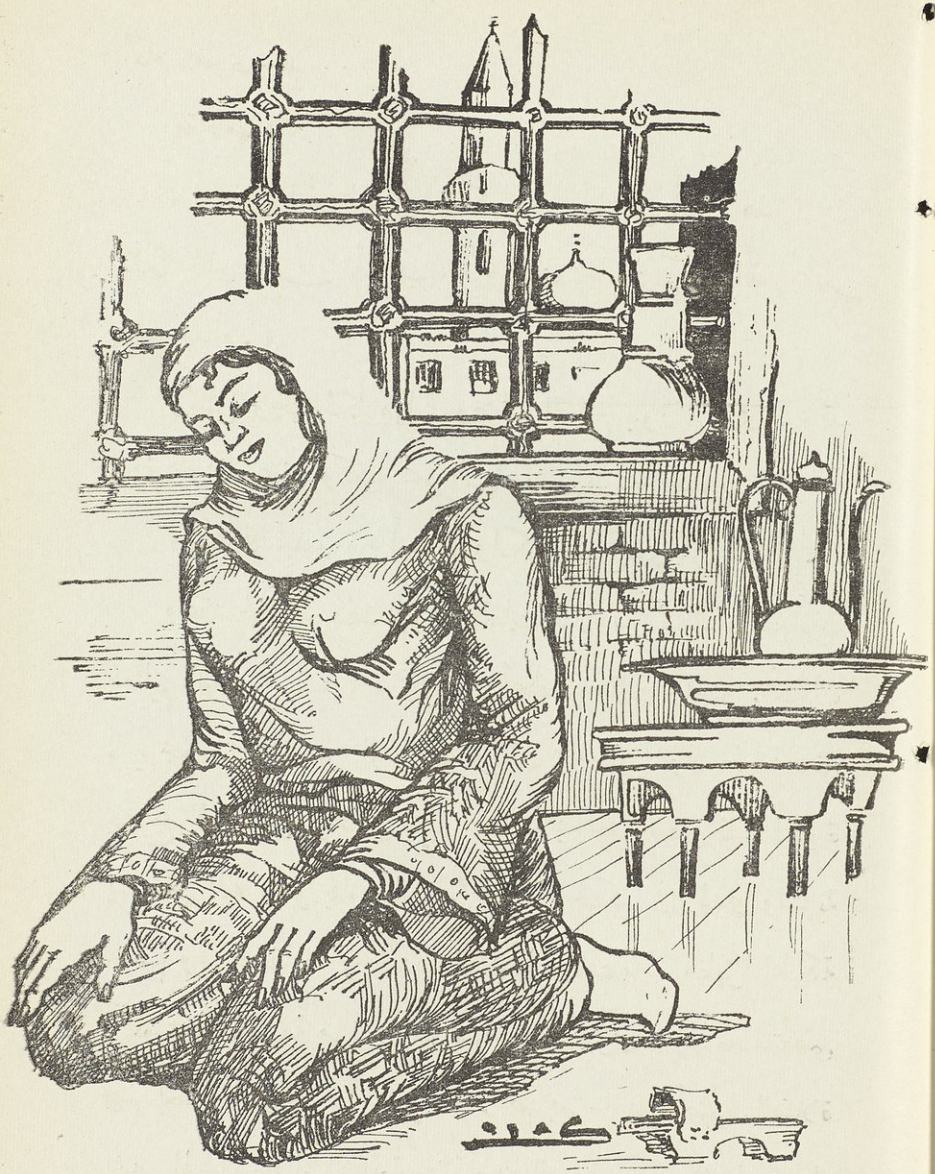

فطأطأت بانكسار ، وقالت بصوت ذليل : بل عن عقيدة والله أهفو إلى الدخول فى مملكة الله ...

أمام ناظرى ـ لا . . . »

فقاطعها قائلا :

« أستغفر الله العزيز الحكيم . من أنا حتى أفعل هذا ؟ إن مملكة الله دون أبواب ، يدخلها خاشعا من كرّمه الله وأنعم عليه بهداه . »

وتهلل وجهه لكلامها ، وضاءه الفرح بنور سماوى ، وقد وقف رافعا عينيه وكفيه نحو السماء يتمتم متهدج الصوت تأثرا :

« إنك لا تَهدى مَن أَحببتَ ولكنّ اللهَ يَهدى مَن يشاءُ » .

وعقد لها منذ ذلك اليوم حلقات لدروس منظمة يلقنها فيها تعاليم الدين الحنيف ، وضحى من أجلها بأوقات راحته . فكان ما يرجع من الأزهر الشريف ويبدّل ثيابه ويتناول طعامه حتى يسرع إلى مسكنها فيجلس إليها تحيط به زوجه وبعض نساء الجيرة يستمعن إليه وهو يتلو آيات من الذكر الحكيم فى الهدى والتوبة خاصة وفى الصفات التى تقرّب العبد إلى ربه عامة ، مظهرا الحكمة والموعظة بالعربية مرة وبالفرنسية مرة أخرى ، إذا ما استعصى فهم بعض الدقائق على « ديانا » . ثم يعرج على أصول الصلاة يشير إلى الأخطاء الشائعة عنها مبينا الصواب . وكثيرا ما صلى بالنساء جماعة إذا امتدّ الدرس وشاق حتى تجب صلاة المغرب

أو العشاء وهنّ ما زلن مجتمعات . فكانت « ديانا » تجلس فى فراشها معتدلة فى انتباه تلاحظهنّ ، وقد مالت إلى الأمام لهفى ، لئلا تفوتها حركة أو لفتة . وفى ذات يوم وكانت قد استردّت قواها شيئا استأذنت الشيخ « عبد الله » فى الصلاة معهنّ فأذن لها . فاتخذت مكانا فى آخر الصف وراء النساء جميعا تقلد حركاتهنّ ، تقوم حين يقمن وتسجد حين يسجدن . ومن يومها لم تفتها صلاة ـ صلاة صامتة تناجى فيها العيون التى تفتحت ربها ، ويبكى فيها القلب الذى استيقظ متلويًا من الندم ويسكب توبته دموعا سخينة . وشيئا فشيئا ، على مرّ الأيام ، تعلمت ألفاظ التكبير والتعظيم فتردّد : « الله أكبر ! الله أعظم ! » فى الركوع والسُّجود والقيام . ثم حفظت جملا ناقصة ثم سورا قصيرة ، ثم سارت فى الطريق . . .

وكان شهر رمضان على الأبواب . فلما أهلّ أوّل يوم منه وملأ الكون بسناه ، اصطحبها الشيخ « عبد الله » وزوجه إلى حيث شهرت إسلامها رسميا وأثبتت دخولها فى زمرة المؤمنين ، وسمّت نفسها « فاطمة » . وطلبت « ديانا » من الشيخ « عبد الله » وهم فى طريق العودة أن يعرّج بهم على السوق واشترت خروفا سمينا دفعت ثمنه من آخر قرش ادّخرته قبل مرضها الطويل ،

وهى تقول باسمة بالعربية :

« ربنا كريم . ربنا رزّاق ! »

ثم استأجروا عربة يجرها بغل عتيق ويقودها شاب مرح خفيف ، وأناموا الخروف فوقها على جنبه ، وأمسكت « ديانا » برأسه وضغطت « بدرية » على فخذيه وقفلوا راجعين .

وعلى عتبة الدار رفعت « بدرية » برقعها عن وجهها وأطلقت أغرودة لفت نشوَى أزقة الحى ومنحنياته . فجاوبتها « أم فلفل » من داخل الفناء وهى جالسة إلى طست الغسيل . فأطلت « أم شربات » من بيتها تحابيهن ببعض الأغاريد قبل أن تعرف ما الخبر . وهرع الناس نساء ورجالا وأطفالا إلى مسكن « ديانا » مهرولين منشرحين يزاحم بعضهم بعضا ، وضحكاتهم تسابقهم ، وأصوات استبشارهم تلاحقهم . كأنما تروى الأغاريد لهم نبأ بهيجا . كالحديث بالطبول عند بعض القوم .

وبلغهم خبر إسلام « ديانا » أو « فاطمة » وانطلق بينهم انطلاق النار فى الهشيم . فصاح الرجال يكبرون الله مهللين تشق أصواتهم عنان السماء ، وغردت النساء بعصبية وحماس حتى جفّت حناجرهنّ ، ولم يعرف الأطفال كيف يصرفون مشاعرهم ، فراحوا يقفزون ويقفزون . وانشقت الأرض عن فرقة

موسيقية جوالة قوامها زمار وطبال . فوقف الحوذى الشاب فوق مركبته وقد لف وسطه بوشاحه القطنى ، واختطف طربوش أحدهم ووضعه على رأسه مائلا وزرّه يترجح إلى الأمام ، وراح يرقص . واشترك المهنئون جميعا فى التصفيق على وتيرة واحدة ترقص العابد وتنسى الوقور وقاره .

وبعد صلاة العصر نحر الخروف ووزع لحمه على الجيران المعوزين . وأفطرت « ديانا » أو « فاطمة » مع عائلة الشيخ « عبد الله » فى حجرتهم ، وساد بينهم السلام .

أسلمت ، « ديانا » . . . أسلمت وتصوّفت . فكعادتها حيال كل عمل جديد تقبل عليه اندفعت تنهل من الدين بجميع جوارحها ، وقد امتزج عقلها وقلبها وتكاتفا واندمجت عواطفها وأفكارها وتوحدت . وكلما تعمقت فى تعاليمه تراءى لها فقرها إليه عملاقا فتنكفئ مستزيدة ، ويحتد طلبها وراءه .

وكانت « بدرية » حاملا على وشك الوضع . فحاكت « ديانا » لها ولمولودها المنتظر ثيابا كثيرة ، وغزلت سترات صوفية صغيرة طرزت حواشيها بورود حُمر وبيض ، وصُفر ففرحت « بدرية » بتلك الملابس أيما فرح ، وتاهت بها على جاراتها .

وجاءها المخاض ذات صباح والبيت خالٍ إلا منها وابنها . أما

الرجال فكانوا قد ذهبوا ، كلٌّ إلى عمله . فأرسلت « عمر » الصغير وراء « ديانا » التى خرجت معه لساعتها فلمحتها « أم شربات » من نافذة بيتها تهرول مسرعة فى الشارع . فأدلت بنفسها حتى نصفها تسألها عما يحدوها على العجلة . فما وقفت على السبب حتى نادت بدورها جاراتها « أم فلفل » و « أم سعدية » و « أم برلنته » و « الحاجة عيوشة » وأسرعن جميعا فى لمح البصر يلحقن « بديانا » فى منزل « بدرية » وامتلأت الحجرة بهن وافترشن الحصير جماعات تتوسطهن « الحاجة عيوشة » وأمامها صينية فوقها معدات القهوة ، وقد جلست مطرقة تلاحظ بتلذذ « التنكة » المعمرة وهى تفور بهوادة ويفوح منها عبير جميل يشرح الصدور .

واستلقت « بدرية » على فراشها أمامهنّ تتلوّى . وأمسكت « ديانا » بيديها مشجعة تهمس فى أذنها من آن لآخر بكلمة أو ملحة فتبتسم لها وسط آلامها . وتربعت جارة فوق المخدّة تسند رأس « بدرية » بين راحتيها وتمسح العرق كلما نضحت به جبهتها وصدغاها . وقرفصت أخرى تدلك قدميها ، واشتغلت اثنتان بتسخين ماء كثير فى أوان نحاسية كشفتا عنها أغطيتها حتى يتصاعد البخار ويملأ جوّ الحجرة فيساعد على سرعة الوضع . . . !

ومرّ النهار وتكاثف الهواء حتى صار خانقا و « بدرية » تجاهد

مستميتة ولا فرج . ولما استقوى الألم وظهرت بوادر الوضع خرجت « ديانا » تستدعى الطبيب . فزحفت عجوز دردبيس زحف القدَر إلى الفراش ، ومدّت يدا معروقة ذات أصابع يابسة . تنحنى أطرافها وتسود كجذوع شجرة عجفاء ، ولمست بدن « بدرية » تتحسس بطنها المتقلص . فصرخت « بدرية » فى نوبة من نوبات الألم المنتظم الذى يطعن أحشاءها وتتجاوب ضرباته فى ظهرها كطعنات الحراب ، وضمت قدميها إلى أعلى كأنما لتدرأ عنها بعض العذاب .

فصاحت بها العجوز تشجعها :

« ما هـذا الضعف منـك يا بنتى ؟ اهدئى واستقوى ... لا تخشى شيئا . سأتحسس فقط لأرى هل يطل رأس المولود خشية أن يختنق وأنت تتلوّين هكذا يمينا وشمالا ! » .

فسكتت « بدرية » مستسلمة ، وهى تعض على شفتيهـا الشاحبتين . وتهافتت سائر النساء يحومن حول الفراش بفضول ، تتمصص إحداهنّ شفتيها مواسية ، وتقص أخرى بصوت مرتفع لمن يودّ أن يسمع دون استثناء كيف أشرفت هى على الموت من عسر وضعها ، ثم كيف أنعم الله عليها بالفرج بغتة فقامت بعافية وكأنما لم تضع ولا حملت ، وتدعو لـ « بدرية » بالمثل . فتدق ثالثة

صدرها وتمضغ قطعة اللبان التى تتشدّق بها بشدّة وحماس لحظة ، وتدور بعينيها فى أرجاء الحجرة من السقف إلى الأرض وبالعكس فى حركة بليغة معبرة ، ثم تقول بصوت مولول :

« اسكتى ... اسكتى يا أختى ! لم تر إحداكن ما رأيت أنا من أهوال الوضع ! لا أراكنّ الله مما قاسيت شيئا ! » .

وتكمل مضغها وتشدّقها .

وعادت « ديانا » بعد أن حادثت الطبيب من « تليفون » البقال . فوجمت لحظة على الباب ، وقد ذهبت بها الظنون مذاهب شتى . ثم اندفعت تشق لها طريقا بين النساء . فهالها أن رأت العجوز غائصة تحت الغطاء بيديها ورأسها . فصرخت مستنكرة وجحظت عيناها هلعا وشفقة :

« ماذا تفعلين بها أيتها المرأة ؟ اتركيها ... اتركيها بربك ! أبيدك القذرة تقتربين منها ؟ كيف هذا ؟ ولماذا ؟ ! »

فلم تتحرك العجوز ولا رفعت رأسها . وأجابت إحدى النساء تربت كتف « ديانا » بيد وترشف من فنجانة القهوة فى يدها الأخرى :

« إنها لا تفعل إلا كل خير . فيدها كلها بركة ، لأنها امرأة مسنة مباركة شاهدت مئات الحالات المماثلة ، ومارست مهنتها فى شرخ شبابها وكسبت منها ذهبا ! » .

— «ولكن يدها القذرة ، يدها القذرة ! آه يا ربى رحمتك ! كيف تتركونها تفعل بـ«بدرية» ما تشاء ؟ وكيف لم تضطرّوها إلى غسل يدها على الأقل إن كان لا بدّ من عملها ! » .

فتكاثرت عليها النساء ، كلٌّ بكلمة ورأى . فتملصت «ديانا» من بينهنّ وهى لا تزال تصرخ :

« دعونى ! دعونى أبعدها عن «بدرية» ! بربكم دعونى ! » .

فتصدّت لها «أمّ فلفل» باسمة وهى تقول :

« اعقلى يا «فاطمة» يا بنتى ! هذه عاداتنا ، ونحن جميعا متعوّدات تلك الطرق » .

ثم مالت على أذن «ديانا» تهمس : «وعلاوة على ذلك فهى عمة زوجها ، أقرب لها منك ! » .

فسكتت «ديانا» وانفلتت راكضة من الحجرة تتلفت حولها منادية :

« أين الشيخ «عبد الله» ! أين الشيخ «عبد الله» ! أغيثونى به ! «عمر» ! «عمر» ! أين هذا الغلام يا إلهى ! «عمر» ! «عمر» ! ها أنت ذا ! ابحث عن أبيك وناده حالا ! أسرع ! » .

فانبرى الفتى قطا متوثبا هابطا إلى الشارع يطوى الدرجات طيا ، وراح يعدو نحو المسجد الحسينى .

وجاء الشيخ « عبد الله » ملهوفا . فصاحت به « ديانا » من أعلى السلم :

« بدرية تضع والنساء حولها . اذهب حالا أرجوك وأت بالطبيب فهو على علم بحالتها . . . أسرع بربك ولا تضيّع الوقت سدى ! ».

أجابها من أسفل السلم ، وقد شحب وجهه الوسيم الغض :

« سمعا وطاعة يا « فاطمة » ، ولكن أرجوك أن تمكثي بجانبها ولا تتركيها لحظة لهانه النساء ! » ثم استدار خارجا وهو يقول لنفسه : « زوجتي . . . حبيبتي ! » .

وعاد بالطبيب . وعلى باب الحجرة المغلقة النوافذ المتكاثفة الهواء التي تموج بالنساء ، تراجع الطبيب متأففا وصاح :

« لتخرجن جميعا من هنا ! » .

فانسللن واحدة تلو الأخرى وهو يتبعهنّ ببصره ، حتى رأى « ديانا » فابتسم لها محيّيا إذ كان يعرفها من يوم مرضها ، وقال :

« أمّا أنت فابقي لتساعديني ! » وشمر عن ساعديه ، وبدأ العمل . وجثمت « ديانا » على ركبتيها إلى جانب الفراش لتتلقى الطفل ، وتناول الطبيب ما يطلب من أغطية وماء ساخن وما إلى ذلك .

ومرّ الوقت متثاقلا ، ساعة وأخرى ، قاست فيهما « بدرية » كثيرا حتى شقت الصرخة الحيية المنتظرة أجواء الحجرة ، فتنفس الجميع

الصعداء، وارتمت المرأة المسكينة منهوكة القوى يتصبب بدنها عرقا باردا. وتلقفت «ديانا» كتلة اللحم المذلوية فى أحضانها بشوق ولفّت ذراعيها حولها، وأراحت رأسها بخفة فوق الرأس الصغير المبلل، ثم حلت اللفافات تتأمل القادم الجديد - بنتا سمراء تجرى فى قسمات وجهها حلاوة ماء النيل وعذوبته، وتعكس عينها نصف المغلقة لون زرعه الأخضر. فضمتها «ديانا» إليها بحب طاغ، وهمست فى شعرها الملبد:

«يا حبيبة قلبى، يا ابنتى!».

ومرّ يوم قلق، وثان، ارتفعت فيهما حرارة «بدرية» وسرت ثم اشتطّت فى ارتفاعها. وساءت حالتها بسرعة عجيبة كأنما هى قطعة من صخر تتدحرج من عل متدهورة فى اندفاع إلى هوة ساحقة. وبذلت «ديانا» من أجلها المستحيل، وقد أصبح واضحا أنها فريسة لحمى النفاس اللعينة. فكانت «ديانا» تفرك يديها لهفة وإشفاقا وأسنانها تصرّ، وهى تكظم غيظها من النساء يطمئنّها قائلات:

«هو اللبن يا بنتى - اللبن نعمة الله على الطفل - الذى يسبب ارتفاع الحرارة هكذا. اهدئى واتركيها لله يتولى أمرها! سليمة بإذن الله! سليمة والنبى!».

فكانت «ديانا» تنظر إليهنّ فى صمت حانق، وتمسك لسانها

عن إجابتهنّ بصرامة . وجاءت بالطبيب ثانية . فلما رفع رأسه عن « بدرية » ببطء يهزها بأسف - وقد قطب ما بين حاجبيه وزمّ شفتيه - فهمت « ديانا » من نظراته الواجمة كل شيء . فهوت بيدها على فمها تكتم صرخة ملتاعة ، وارتمت على أريكة بلدية فى ركن جاحظة العين ، راجفة القلب . ثم دفنت رأسها فى ذراعيها ، واهتز بدنها بنحيب قاس بلا دموع . ثم ألقت بنفسها فوق « بدرية » الغائبة عن الوجود تصيح بصوت باك موجهة كلامها إلى الطبيب :

« أواه يا سيدى ! هذا ما كنت أخشاه ! هذا ما كنت أرهبه يوم رأيت المرأة تلمسها بيدها القذرة الملوّثة ! أواه يا « بدرية » ! أواه يا حبيبتى ! » .

واشتدّ الخطر ، وحام الملك ذو المنجل حول البيت الحزين . وباتت « بدرية » تهرف وتهذى وعيناها مفتوحتان تنادى زوجها وتتوسل إلى الحاضرين أن يجيئوا به إليها ، وهو ملازمها كل الوقت ، ممسك بيديها يضغطهما بين كفيه ويقبلهما متمتما :

« هأنذا يا « بدرية » إلى جانبك لا أفارقك لحظة . انظرى - انظرى إلىّ يا حبيبتى ! » .

فلا تلتفت ، ولا تسمع ، ولا ترى .

وفى هدأة الليل قبل أذان الفجر بقليل اعتدلت « بدرية »

جالسة . وكانت « ديانا » إلى جانبها والطفلة فى أحضانها نائمة تهدهدها وتقطر فى فمها قطرات من مغلى الينسون .

وكان الشيخ « عبد الله » قد غلبه التعب والسهر ، فأراح رأسه وهو جالس القرفصاء على مخدّة زوجه جنبا إلى جنب مع رأسها ونام .

فلما رأت « ديانا » أن « بدرية » متنبهة ، وضعت الطفلة بسرعة فى الفراش وهرعت إليها . فابتسمت لها « بدرية » محيية ، وأخذت يدها بين راحتيها المحمومتين :

« أى « ديانا » . . . « فاطمة » يا أختى ؛ أغدقت علىّ . . . كثيرا ... دائما ... ولكنى ... أنا ... أنا ليس لدىّ ما أعطيه لك ... ردّا لجميلك ... سواه ... هو ... هو ! » .

ووضعت يدها على الرأس المعمم المتعب إلى جانبها . ثم أردفت مسرعة كأنما تخشى أن ينقطع عنها التيار الخفىّ الذى يمدّها بالقوة :

« خذيه ... خذيه يا « ديانا » . هو ... هو لك ... هنيئا ... لك به ... وهنيئا له ... بك يا « فاطمة » ! أباركما ... أباركما ! » .

وازدردت ريقها بصعوبة وهى تلهث : « وابنتى ... ابنتى يا « فاطمة » ! خذيها ... أيضا ـ ربّيها لى هى وابنى ... يا حبيبتى ! » .

وتهدّج صوتها وخفت ، وتلاحقت أنفاسها لاهثة ، وأغمضت عينيها . فاستيقظ الشيخ « عبد الله » ليبصر زوجه

على هذه الحال . فسقط فؤاده فى جوفه ، وجف حلقه ، وارتمى فوقها يربت خدّيها لينبهها ، ويمسح على شعرها بحنان ، ويناديها بأرق الأسماء .

ففتحت « بدرية » عينيها بجهد ، وراحت تنظر أمامها ذاهلة . ثم ارتدّ إليها فهمها ، وتنبهت فجأة . فأخذت بيد زوجها الكبيرة السمراء تقرّبها من يد « ديانا » الرخصة البيضاء حتى تماسّتا ثم تماسكتا فوق بدنها . وقالت تسرق دقائق أخرى من الزمن :

« خذها ـ خذها يا « عبد الله » ... « فاطمة » ! خذها ... فهى ... تحبك ... كنت أعلم ... دائما ... أعرف ... منذ ... أوّل ... يوم ! لا ... لا تترك ابنتى وابنى دون ... أمّ ! « عبد الله » أطعنى ... أباركما . أباركما ! » .

ومن فوق الجسد المسجّى التقت أعينهما فى خشوع ورهبة وتشبثت ، كما التقت أيديهما من قبل . وقد خفت وقدة النار المشبوبة ، وتصافت روحاهما وامتزجتا يصقلهما الحزن المشترك . فسقطا على فراش « بدرية » يعولان ، وأيديهما بعد متشابكة ، يسحبان الغطاء على الوجه الساكن .

وخيّم الظلام

وساد الصمت . صمت عميق مطلق يفيض أسى وذلا ، صمت بليغ لو جسّم لتمثل عبدا رقيقا ناكس الرأس ، مقوّس الظهر .

فى هذا الصمت الذليل الحقير تسللت يد « أشجان » تتحسس موضع الصفعة على خدّها البرنزى ، ذى الخال الفاحم تحت عينها اليسرى .

أمّا الحاضرون جميعا فقد حبسوا أنفاسهم وتطلعوا مبهوتين ، وتبدّى على صفحات الوجوه ماجاش فى الصدور من عواطف ومشاعر متباينة : دهشة فى وجوم ، حيرة فى إحراج ، شفقة فى استنكار .

شهقت « أشجان » شهقة خرساء من هول المفاجأة ، وغاض الدم من وجهها الذى غشيه اصفرار شديد ، ونضح جبينها قطرات كبارا من العرق البارد ترقرقت لحظة ، ثم سالت على صدغيها خطوطا رفيعة كالدموع ؛ وجف حلقها ، والتصق به لسانها كأنما غُلَّ إليه بصمغ ، وسرت برودة فى كيانها كله

أحست لها برعشة هزتها هزا ، وأشلت ذراعيها إلى جانبيها ، وسمرت قدميها .

تحوّلت الأنظار من «أشجان» إلى من اعتدى عليها ، كان واقفا قُبالتها ينظر إليها شزرا ، وهى ترتجف كغصن فى إعصار خريف ، ثم بصق بصقة تحقير تطاير رذاذها ، فأصاب قدميها الحافيتين . وبكل تؤدة التفع بعباءته الواسعة المغزولة من وبر الجمل الأملس ، وألقى بطرفها فوق كتفه ، ثم استدار ليواجه القوم . . .

إنه من أثرياء الوجه القبلى : صعيدىّ ، وغنىّ . . . صفتان تفسران جوّ الاعتداد والأنفة الذى يحيط به كالهالة .

وهو فى مقتبل العمر ، وهبه الله بسطة فى الجسم ، مع حسن تكوين ؛ فارع الطول فى استقامة ، مرفوع الرأس فى أنفة ، عريض المنكبين فى غير ثقل ، ضامر الخصر ، فكأنه فارس من فرسان قصص البطولة التى يتغنى بها عازفو الربابة ، أو تمثال حشر بين الناس نموذجا للرجل كما يجب أن يكون .

وكان وجهه فى لون النحاس المصهور مشربا بحمرة قاتمة . أمّا قسماته فكأنما نحتت بدقة وتفنن ، عينان عميقتا الغور ، حالكتا السواد ، شديدتا البريق . وأنف مستقيم أشم ، وفم وإن اكتنزت

شفتاه شيئا فهو يبرز صفتين متناقضتين : الصرامة القاسية ، والطيبة المتناهية ، تنطق بهما الخطوط الدقيقة المتفرّعة على جانبى الفم الذى ينفرج عن ضحكة عريضة ساذجة تنضح دعة ومرحا إذا انبسطت أسارير الوجه ، أمّا إذا اكفهرّت فإن الفم السخىّ يختفى ليحل محله شق رفيع صارم .

لم تَطْرِفْ للرجل عين بعد أن رنّت الصفعة التى صافح بها خد الراقصة « أشجان » وسط قاعة الرقص . وقف كالطود الأشم ، لاينمّ وجهه الصخرىّ الشديد السمرة عن ندم على تهوّر أو اندفاع . ثم أزاح عباءته الصوفية عن كتفيه وألقاها على جسد « أشجان » العارى وهو يرمقها بنظرات تقدح لهبا ارتجفت لها المرأة وتداعت رعبا ، وضمّت أطراف العباءة حولها فى إحكام ، وانزوت وراء « حمدان » وهو يستدير ليغادر القاعة وتبعته مطأطئة الرأس وهى تجر أذيالها بين أرجلها كالكلب المضروب .

* * *

كانت الليلة ليلة عيد الميلاد ، وقد أمضى « حمدان » النهار كله مع « ماجور سيدنى » يتفاوضان فى صفقة ترمى إلى توريد كمية هائلة من الدقيق قبل عيد رأس السنة ، وقد اعتذر « حمدان » بضيق الوقت ، وأبدى استعداده لتوريد الكمية قمحاً كالمعتاد ،

ولكن « الماجور سيدنى » كان مصمِّما ، ومن هنا كان الاختلاف الذى اضطر « الماجور » معه إلى أن يصحب صديقه التاجر الصعيدىّ إلى النادى ليلاً ليُتما الاتفاق ، أو يهتديا إلى حل وسط يرتضيانه معا .

وكان هذا النادى مقاما فى عائمة راسية على شاطئ الجزيرة ، خاصا بحفنة من كبار الضباط الإنجليز . وقد اختاروا اثنين من من جنود المراسلة السنغاليين العمالقة ليقوما على خدمتهم .

وكانت إدارة النادى مؤلفة من ثلاثة من أكثر الأعضاء عبثا ، وأخصبهم خيالا فى التفنن فى ضروب التسلية السافرة . فنظموا برنامجا شائقا على حد تعبيرهم بمناسبة ليلة عيد الميلاد فى تلك السنة من سنى الحرب الأخيرة .

وتقاطر الأعضاء على النادى مبكرين ، وقد حرصوا على تمضية السهرة كلها به ، واحتلوا أماكن قريبة من حلبة الرقص التى زينت أبدع زينة ، تمثل بهو قصر شرقى ، تتمايل على جانبيه نخيلات باسقات كغوان راقصات على أنغام موسيقى خيالية ، وتتوسطه فوَّارة تنبثق فيها المياه من أفواه جنيات للبحر أربع يجثمن فوق أركانها ، وتحيط بها أصص الزهر والورود الفواحة ، وبُثَّتْ فى أنحاء البهو أنوار أخفتت أضواؤها عمدا لتضفى جوا

شاعريا يزيد من شرقية الحفلة ، ويطلق العقول من قيودها تسبح فى أجواء الخيال وتمرح فى بيداء الأحلام ، ونثرت الوسائد والحواشى المزركشة على الأرض فى الأركان المظلمة تحت الخمائل المصنوعة من حبال الورد المتشابك ، وَجَرتْ الخمر أنهارا يصبها الأسودان فى كئوس القوم من أباريق فضية مجلوبة من « خان الخليلى » مصنوعة على طراز الأباريق التى تعدّ ليصب منها ماء الوضوء ...

وبينما الحاضرون فى لهوهم وشربهم قرعت دفوف خفية إيذانا ببدء البرنامج قرعا متواصلا مثيرا يشيع الدفء فى الأوصال ويبعث الرجفة فيها فيحرّك من كوامن النفس ورغائبها . ثم انطلق من بينها عاليا صوت ناى رقيق المناجاة كهمهمة عاشق شاك ، وعلى أثره دلفت طائفة من الراقصات فى غلائل شفافة إلى وسط القاعة فعلت أصوات الاستحسان ، وارتج المكان بعاصفة من التصفيق والتهلل ، انفرجت لها شفاه الراقصات المصبوغة رضا وسرورا . فأقبلن على الحاضرين يتمايلن على صدورهم ، ويلقين برءوسهن على أكتافهم ، ويطلقن الضحكات .

ومرّ الوقت ، وعبق الجوّ بسحائب الدخان ينفثها الرجال من مباسم النراجيل العاجية ، وتكاثف الهواء بالأنفاس الاهثة

المشبعة بريح الخمر والعرق . وكان الرجل إذا أعجبته راقصة أخرجها من بين زميلاتها وجرّها إلى ركنه جرّا كرجل الكهوف . وما انتصف الليل حتى دارت الرءوس ، وأبرزت الغرائز أظفارها غير مقلمة ، وتُوِّج الشيطان ملكا تلك الليلة ، وتهالك المحتفلون على إرضائه .

فهمهم « حمدان » يستعيذ بالله من شياطين الإنس والجنّ ، وما لبث أن مال على « الماجور سيدنى » يستأذن فى الانصراف ، إذ أنه أمضى العقد معه ، وليس له فى هذا الميدان مجال ، وَيمّم وجهه شطر الباب .

وبينما هو يقدّر مواقع خطاه ، حِذَارَ التعثر فى طريقه ، دقت الدفوف بغتة دقا عاليا كأنما تلفت الأنظار إلى جزء من البرنامج ذى شأن ، فلم يقف « حمدان » ولكنه التفت بدافع من الفضول ، فرأى الأضواء تتضاءل وألفى السنغاليين العملاقين يدخلان قاعة الحفلة متجردين إلا قليلا وقد احمرت أعينهما من الشراب ، يحملان صينية فضية كبيرة مغطاة بالورود الحمر ، ترقد عليها راقصة عارية . . .

كانت تنظر حواليها إلى الحاضرين من علياء ، كأميرة الشمس فى مدينة وثنية ، تشرق بمحياها على رعاياها وهم يتحرّقون شوقا

ووجدا . ولما توسط العبدان السنغاليان القاعة ، أنزلا الصينية ، وبدأت الراقصة تتلوّى كأفعىٰ أحست بالدفء . نهضت ببطء تحثها نغمات رقاق يطلقها الناى هامسا نشوان ، وقد بسطت ذراعيها أمامها ، وحنت رأسها ، وأسدلت جدائل شعرها الفاحم الغزير تحجب وجهها وصدرها عن الأعين المتطلعة اللهفىٰ . ثم قرعت الطبول ، وعلت ضرباتها متداركات تثير الأعصاب ، فانتفضت الراقصة تَشْوَى ، وقفزت كالنمرة واقفة ، وانعكست عليها الأضواء الناصلة ، فظهرت عارية كتمثال نحاسىّ تأنق صانعه فى إبداع علت له همهمة الإعجاب وتصايح الاستحسان . ثم ألقت برأسها إلى الخلف فانساب شعرها على الجانبين ، وانقشع كسحابة عن وجه بَيْضىّ الشكل دقيق القسمات ، تشيع فيه سمرة مشربة بحمرة خفيفة كغلالة الحياء فى وجنات العذارى . أمّا عيناها فمكحولتان ، أهدابهما ثقيلة ، ونظراتهما مسترخية كسيرة .

وما إن شرعت ترقص فى حركات مغرية مثيرة ، حتى انبرى « حمدان » يشرع إليها بصره ، وهو مستريب بها ، تنوشه الظنون . وظل يحدّق إليها فى تفرّس وتعرّف ، وأخذت أوصاله ترتعد ، ولم تكد عينه تلاقى عينها حتى شعر بأنها تضطرب اضطرابة الدهشة والذعر ... فلم يبق عنده شك فى أنها هى ... فما عتم أن وثب

عليها يمسك بجدائل شعرها ويلفها حول معصمه ، ويلطم وجهها لطمة كان لها وقع السوط :

— يا فاجرة ... من كان يظنّ ؟

* * *

خرج « حمدان » من العائمة ، وهو يجرّ الراقصة « أشجان » خلفه ... كانت كالحالمة ، مخدّرة الأعصاب مسلوبة الإرادة ؛ ومشيا من « الجزيرة » إلى « انبابة » والليل حالك ، والهواء قارس ، والسكون شامل لا يقطعه إلا وقع حذاء « حمدان » ذى النعل الغليظة على الطريق الأملس . حتى إذا وصلا إلى ذلك الجزء من النيل حيث ترسو السفن الشراعية محملة بالقلل والجِرار والحبوب ، صاح « حمدان » :

« عليوة » وَيْكَ ! ... أنا « حمدان » ! ... « عليوة » وَيْكَ ! ... أنا « حمدان » !

فقفز « عليوة » من قاع إحدى السفن كالقط اليقظ قائلا :

أهلا ، مرحبا بالريس ! ... أمرك سيدى !

— حل الحبال وانشر الشراع ، وزجّنا فى عرض البحر ، وابق هنا فى مركب ابن عمتك حتى يأتيك منى نبأ .

وكان « عليوة » يعمل ، و « حمدان » يلقى أوامره ، فما

إن أعدّت السفينة حتى التفت « حمدان » إلى « أشجان » ـ أو « ناعسة » اسمها الأصيل ـ دون أن يتكلم ، ففهمت مرامه ، وتقدّمت مرتجفة تقفز إلى داخل السفينة ، ثم قصدت إلى ركن تبكى فى ذلة ومهانة .

ولما توسطت السفينة عرض النهر المقدّس ، وقد نشرت أشرعتها الثلاثة وامتلأت بالهواء ، تنفس « حمدان » الصعداء ، وأمسك بالسُّكان ؛ وكانت الريح تصفر ، والموج حائرا يتخبط بين الشاطئين .

ومرّت برهة ، استسلم فيها « حمدان » لأحلامه ، تعود به القهقرَىٰ سنين موصولة ، فمرّت حياته مع « ناعسة » شريطا سينمائيا ... ها هما ذان فى « قنا » مسقط رأسيهما ؛ صياد يتيم ناشئ ، وطفلة مرحة تصحب أباها المؤذن الضرير إلى الجامع كل وقت صلاة ، ولا تنفك تقفز وتدفع قطعة من الحجارة بقدمها ، ويدها فى يد أبيها ؛ حتى إذا ما رأته تهلل وجهها وبدأته بالتحية :

« صباح الخير يا «حمدان» . » أو : « مساء الخير يا « حمدان » ؛ كيف أنت والسمك اليوم ؟ » .

فكان وهو الشاب اليافع يضطرب لصوتها تخاطبه ، ويكشف عن سَلته غطاءها من القش ليريها فى صمت صيد اليوم من بركات

النهر ؛ فتقول له :

« خير كثير والله ... ما أوسع رزقك يا شقى ! » .

ويجلجل ضحكها عاليا ، وتبرق عيناها فرحا بالحياة ، ثم تداعبه بأن تضرب ذراعه أو تجذبه من كم جلبابه ، فكانت خفقات قلبه تسرع دائما لمداعباتها . وكان أبوها يزجرها دائما برفق :

« كم نهيتك يا « ناعسة » يا بنتى عن طول اللسان هذا ؟ ! » .

فيتمتم « حمدان » وهو يتعثر فى مشيته :

« إنها تمزح معى يا عماه ... لا ضير ! » .

وهكذا . نشأت معرفتهما مع طفولتهما ، وتطورت مع شبابهما ، حتى ذاع حبهما فى « قنا » وأصبح حديث القوم جميعا .

وعلى مرّ الأيام اشتدّ كلف « حمدان » بالفتاة ، وأصبح هواه لها أكبر من أن يسعه قلبه ، فصحبها وأباها ذات يوم إلى دارهما بعد صلاة العشاء ، واستهل حديثه يقول - كأنّ زواجهما شىء مفروغ منه منذ زمن - :

« متى يكون العقد يا عماه ؟ المهر معى والحمد لله » .

وربت صدره ، حيث تكمن ثروته الصغيرة فى أمان ، داخل كيس من القماش ، يربطه إلى عنقه بحبل .

فتهلل وجه الشيخ الطيب ، وأسرعت أصابعه فى عدّ حبات

السبحة طربا ، وأجاب وقد انفرج فمه عن ابتسامة كبيرة :

الأمر أمرك يا « حمدان » يابنى ؛ تعقد على « ناعسة » الليلة أو غدا ، هذا شىء يخصك .

— كان بودّى الليلة والله ، لولا أنّ الوقت متأخر ، ومأذون بلدتنا لا يغادر بيته بعد المغرب ، ولو دعاه العمدة . ولكن قسما بالعلىّ العظيم لآخذن امرأتى معى الليلة القادمة أية كانت الظروف .

— ليكن ما تريد يا « حمدان » . ...

وتزوجا . لم يكن له بيت ، فأخذها معه إلى قاربه ، وكان قد أقام فوق سطحه ظلة صغيرة من الخشب يبيتان فى داخلها ، ويمضيان نهارهما فى بسط الشباك وإلقائها على صفحة النهر الواسعة المباحة للساعين إلى الرزق جميعا .

لم يرزقا أطفالا ، ولكنّ ذلك لم يؤثر فى حبهما ، على الأقل فى حبه إياها . كان سعيدا راضيا بنصيبه وبزوجته ، وكان يظنها كذلك ، حتى بدأت تتذمر من عيشتهما البدائية ، وتظهر مللا وفتورا فى مساعدتها له ، وتشيد بما سمعته عن حظ فلانة صديقة طفولتها مع زوجها الذى يهيئ لها عيشا هانئا ناعما ، وحظ ابنة جارتهم الذى وصلها بتاجر مثر تلعب بماله لعبا . وقد تقبّض

قلب « حمدان » حينذاك لهذا الحديث الذى كان أوّل نذير طرق باب هنائه وهدّد عُشه .

عمل « حمدان » ما وسعه لإرضائها ؛ اصطاد الليل كله ليضاعف كسبه ، ورسا بقاربه عند « الأقصر » وغيرها من البلدان التى يغشاها الأثرياء ، وحمل صيده بنفسه إلى الفنادق والقصور ، ووزعه على المطابخ ، وتعلم كيف يتشبث بالثمن الذى يقدّره ويعلى صوته إذا ساومه فيه أحد ؛ وكان إذا عاد مع الغروب منهوك القوى ألقى بالنقود فى حجر « ناعسة » ونفض كيسه أمامها ، ثم استلقى عند قدميها ينظر إليها بعين الواله ؛ كان رضاها عنه مُنَاه ، ودوام عيشتهما معا مَرْماه ؛ ولكن زادت فى كبريائها ، واستفحل الأمر ، حتى رضى - وهو الصعيدىّ الأبىّ الغيور - أن تصحبه فى تجواله فى المدن التى يرسوان عندها للبيع معه ، والترويح عن النفس ، والتفرّج بالدنيا - على حدّ قولها ... وليته لم يرض ! ...

عض « حمدان » بنان الندم ، وهو يدير السُّكان بعنف فى غيظ مكتوم ، وتنهد من قلب مكلوم ...

لقد تفرّجتْ « ناعسة » واطلعت على الدنيا ... أى دنيا ؟ ...

دنيا المال والجاه ، دنيا الترف والبذخ فى الفنادق الكبرى ... كان يدلف هو إلى المطبخ يحمل بضاعته ، فى حين تتسلل هى إلى الحديقة تختلس النظر خلال النوافذ إلى الردهات والغرف الداخلية الغاصة بكبار القوم من الأثرياء والسيّاح ... السيدات يرفلن فى الحرير والقطيفة ، وتضوئ صدورهنّ ومعاصمهنّ بالحلىّ والجواهر ، والرجال ناعمة بشراتهم ، هامسة نبراتهم ، لهم منظر وجيه ، وجاذبية خلابة ، جعلت عين « ناعسة » تتعلق بهم فى إعجاب ، وهم فوق ذلك يبتسمون فى رقة ، ويحابون من لا تدانيها حسنا !

وفجأة اختفت . . . اختفت اختفاء غامضا من المدينة ، بل من الصعيد كله ، بل من حياته ! . . . بحث عنها « حمدان » فى كل مكان ، وذرع عرض النهر شمالا وجنوبا ، وسأل عنها فى كل قرية وكل مدينة ، صَغرت أو كبرت ، قربت أو بعدت . وتحدّث إلى كل إنسان لقيه فى شأنها ، ودقق فى سؤاله عنها ، واستحلفه بكل غال ، حتى وصمه الناس بالجنون .

ومرت السنون لم ينسها ، ولكنه أخفى ذكراها فى ركن قصىّ من قلبه ، ورجع إلى عقله ، وجمع شجاعته وشتات نفسه ، وسأل الله الصبر والقوة ، واستأنف حياته وسعيه . . . أدلى بدلوه

فى كل عمل وكل تجارة ، ووضع قلبه فيما زاوله ، فنجح نجاحا باهرا ـ لم تستهوه امرأة بعد « ناعسة » ، فقد كان من ذلك النوع من الرجال الذى يتفتح فؤاده مرة واحدة ، ويشتعل جوى ووجدا ، حتى إذا ما قدر لناره أن تخبو ، احترق وأصبح يحمل مكان القلب حفنة من الرماد . وربما كان ذلك وحده سرّ ثروته التى تزايدت وتضاعفت فى سنى الحرب ، حتى أصبح وهو بعد لم يتخط العقد الثالث من عمره مرموق المكانة بين تجار الحبوب .

لم يسمع عنها كلمة فى كل أسفاره ، طوال هذه السنين ، حتى لقيها هذه الليلة الليلاء ، على تلك الحال الشنعاء ، فى نادى الضباط الإنجليز .

* * *

انكمشت « ناعسة » فى ركن صغير من السفينة الشراعية مطرقة ، موصولة نظراتها بالأرض ، وتقدم الليل ، و « حمدان » فى سفره المجدّ ، لم يفتح حديثا مع « ناعسة » ولم يناقشها الحساب ، فسكن روعها قليلا ، واستردت طمأنينتها شيئا . وأسفر القمر يرسل ضوءه الفضى الوادع ، فجعلت « ناعسة » تبعث النظر إلى « حمدان » فتراه سابحا فى أخيلته ، آخذًا بِسُكان السفينة ، فسألت نفسها : مالها خَشِيَتْه ؟ وماذا أفزعها منه ؟ وكيف تظن أن يوقع بها

شرا ؟ أليس هو ذلك العاطفىّ الأبله كما كان دائما ، يسبح فى أجواء الخيال ، ويخاف حساب ربه ، ويؤمن بالقدر ، ويرضى بالنصيب ، ويقبل ظاهر يده وباطنها حمدا على الفضل الجزيل ولو بات طاويا خاويا ؟ إن ثورته تحاكى ثورة بركان تشتد وتزلزل ، ثم تخبو وتخفت مكانها وكأنها ما كانت . إن موقفها ليس سيئا بالدرجة التى تخيلتها أول وهلة . . . بقى أمل ! . . .

تنهدت « ناعسة » بارتياح لخواطرها التى زادتها اطمئنانا ، فاعتدلت فى جلستها ، وتابعت سلسلة أفكارها ، لتنظر أولا فيما تفعله ، لتمحو الصورة القبيحة التى رآها عليها الليلة . إنها امرأة عملية واقعية ، لا لف ولا دوران عندها فى نيل مرامها والفوز بمأربها . فلتشهر فى وجهه أقوى سلاح . وهل أقوى من الحب - فى عرفها - على محو كل قبيح ، أو على الأقل فى التغاضى عنه ؟ ماذا عليها لو حاولت إيقاظ حب « حمدان » لها ثانية ؟ لقد كان مشبوب العاطفة نحوها دائما ، يقدر جمالها ، ويرى عظمة الله فى إبداع تكوينها . وكانت بسمتها تسعده ، وغضبها يؤرّقه . إنها ما برحت جميلة ، بل زادت أنوثتها نضجا .

شعرت « ناعسة » لهذا الخاطر بالنشاط والدفء يدبّان فى كيانها ، ويسكبان فى روحها الثقة ، فأخذت تجرى أناملها خلال

جدائلها الفاحمة الحريرية تمشطها وترتبها ، وعضت شفتيها فى لطف تدغدغهما مرارا ، حتى جرى فيهما الدم موردا . ثم مالت على حافة السفينة ، ومدت يدها فى حذر إلى الماء ، وهى تختلس النظر إلى « حمدان » ، فلما استوثقت أنه لم ينتبه لها ، أخذت حفنتين شربت إحداهما ، وغسلت وجهها المصبوغ بالأخرى وجففته بطرف عباءتها . ثم ألقت برأسها إلى الخلف فى حركة كلها دلال تعلمتها من المدينة ، وأسبلت جفنيها الكحيلين .

- « حمدان » !

سرى صوتها فى الليل رقيقا هامسا كالنسيم ، وقد حاولت جهد طاقتها - وهى ممثلة الفطرة - أن يخرجه نداؤها من أحلامه بلطف ، ويحمله على أجنحة رقاق إلى الأيام الغابرة يذكره بالماضى وطهارته ، وينفض عن غرامه غبار الزمن ، ويمحو عن جبينه غضون الغضب ، ولكن الرجل لم يلتفت إليها ، وكأنه تمثال ثبت فى مؤخرة السفينة ، ويده على سُكانِها ، وعيناه سابحتان على النهر الجارى أمامه .

- « حمدان » يا أخى !

علا صوتها عن الهمس قليلا هذه المرة ، يشوبه عتاب ورجاء ، ويعتريه فى نبراته اضطراب : وتململت المرأة فى جلستها ،

وعيناها متعلقتان بوجه الرجل الرابض أمامها كالقدَر ؛ وقد انتضت كل أسلحتها ، وشحذت كل مواهبها وغرائزها ، وأهابت بها أن تواجه معها العاصفة .

قامت من مكانها ببطء وتردد ، وفجأة أتت بحركة عجيبة ؛ انزلقت بجسمها كالحية على أديم السفينة ؛ وزحفت إلى « حمدان » على فخذيها وكفيها ... كانت تتحسس طريقها بحذر ؛ فإذا ما ضرب الموج السفينة ، أو هاجمتها ريح الشمال عاتية ، فاهتزت ومالت بعنف من جانب إلى آخر ؛ تشبثت « ناعسة » بالألواح الخشبية ، وأنشبت أظفارها كالهرة المذعورة ، حتى يهدأ النهر ، فتستأنف زحفها حثيثا نحوه ، حتى إذا أصبح ما بينه وبينها لا يزيد على بضعة أشبار ، جثمت على ركبتيها تواجهه .

هنا صحا « حمدان » فرفع إليها جفنيه المثقلين بالهموم والسهر ، وحدجها فى صمت ، وقد غلت مراجل غضبه دفعة واحدة ، فقطب جبينه ، وكشر عن أنيابه ، وزمجر كالأسد الثائر ، وضرب السُّكان بقبضة يده ، ودفعه عنه ، تاركا إياه يفلت منه ، وقفز واقفا ، فتراقصت السفينة ، وقد اختل توازنها ، وتلاعب بها الموج المتلاطم كأنها كرة فى يد طفل لاه ... وتدحرج « حمدان » إلى قاع السفينة مع « ناعسة » جنبا إلى جنب ...

كان البرد شديدا ، والريح عاصفة ، والنهر غاضبا ، فاستخفت الحقيقة عن « ناعسة » التى ما كادت تشعر بجسد « حمدان » ملتصقا بها حتى انشرح صدرها ، وأقبلت عليه تضمه وتلثمه فى لهفة مجنونة . فنَدَّت عنه صرخة الملسوع ، وطَوَّح ذراعيها متقززا ، ثم قام يجثم بركبتيه على صدرها ، وضغط رأسها بكفه الكبيرة فوق حافة السفينة ، فشلت حركتها ، وجحظت عيناها .

وعلى ضوء القمر الهزيل قرأت « ناعسة » فى وجه « حمدان » المتقلص ، وفى عينيه المحتقنتين ، وعلى فمه المطبق الصارم ، ما قدِّر لها على يديه ؛ فصرخت صرخة راعبة تحشرجت فى حلقها وضاعت فى الفضاء الواسع .

واستلَّ « حمدان » فى سرعة شيئا صغيرا لامعا من طيات ثوبه ، وجمجم صائحا :

« بسم الله ، الله أكبر ! » .

وأعمل مطواته فى رقبتها ، فتدفق دمها غزيرا قانيا يصبغ صفحة النهر السوداء ...

ولبث الرجل أمام « ناعسة » يتأملها مليا على ضوء القمر ، وألفى نفسه يتدانى منها ويأخذ رأسها بين يديه ، ويداعب شعرها بين أنامله ، ثم هوى على شفتيها يقبلهما فى شغف وحنين ،

ولبث الرجل أمام « ناعسة » يتأملها مليا على ضوء القمر ...

وهو يجمجم :

« كان قلبي يحبك والله يا « ناعسة » . . . ما كان الأمل أن تفعلي ذلك ! » .

فتوارى القمر مسرعا وراء السحب الكثيفة القاتمة ، كأنما به رعب مما رأى ، وشحبت النجوم المبعثرة فى السماء وَجِلةً ، وهدأت صفحة النهر الهرِم الصَّمُوت ، بعد أن طوى ذراعيه على سر آخر من أسرار أبنائه ... ... وخَيَّم الظلام !

ريحان أغا

« حاضر يا أمى ! » .

« أمرك يا أمى ! » .

لم تكن تجيبها بغير ذلك . ابنة طيعة خَضوع ، نسمة فجر رقيقة ، تخطو على استحياء متعثرة فى سِنِي عمرها الخضر : ست عشرة سنة ، ينقصن شهرا أو شهرين . قسماتها دقيقة تطل من بينها عينان خضراوان تخفى نظرتهما الدهشة المتطلعة أبدا أهداب ثقال . لها مبسم كأنما طوّحت وردة بإحدى وريقاتها البضة على صفحة وجهها ، فهوت نابضة تتوهج وسط بياض ناصع .

وقفت « ملك » تفرك جوانب ثوبها مضطربة ، وبصرها موصول بديباجة السجادة العجمية الثمينة التى تنبسط فى الردهة الفسيحة .

وقالت أمها - تلك السيدة الوقور ذات المهابة والجبروت - وهى تعتدل فى جلستها فوق الأريكة الوثيرة الحواشى ، تنساب

بين أناملها حبات سبحة من الحجر الأبيض :

« قلت لن تذهبي ، فلن تذهبي . لا أحب الصديقات ولا سيرة الصديقات . أتعين قولى ؟ » .

— « نعم يا أمى ! » .

— « ستنفذين ما أقول حرفا بحرف » .

— « أمرك يا أمى ! » .

فأسبلت « السيدة الكبيرة » جفنيها رضا ، وصفقت تنادى :

« قهوة الصباح يا ولد ! » .

فانشقت الأرض عن زنجىّ صغير يحمل معدّات القهوة على صينية تتضوأ نظافة ، كأنما كان يقف بها وراء الباب . فوضعها على الأريكة إلى جانب سيدته ؛ ومشى القهقرى يغادر الحجرة ، وعيناه المذعورتان عالقتان بشفتى سيدته ، يراقب ماعسى أن تتفوّه به من مطلب . . .

— « بنات مائعات فى شرخ الصبا ! ماذا يفقهن من شئون الدنيا ؟ أين أهلوهنّ ؟ كيف يبحن لهنّ الانطلاق كما يشأن ؟ رحم الله أيام زمان ! » .

وتمصصت « سعادات هانم » شفتيها . يهتز رأسها الضخم يمنة ويسرة تحسرا على زمن مضى لا أوبة له .

ولبثت برهة تنظر إلى ابنتها شزرا ، ثم أردفت :

« اذهبي الآن إلى مدرستك ، وإياك أن تعيدى على مسمعى دعوة صديقة لك تصاحبينها فى زيارة أو نزهة . إنى لا أطيق هذا التمنّع . انتبهى لدروسك ؛ فذلك والله أجدى عليك وأفضل »

— « أفعل يا أمى » .

وتدانت « ملك » منحنية تقبل يد أمّها ؛ ثم جرّرت قدميها منصرفة فى خزى ؛ تحمل حقيبة كتبها تحت إبطها .

هبطت درجات السلم الرخامى مهرولة ، وهى تشهق بدموع حبيسة . ودلفت إلى المركبة المنتظرة على باب القصر الكبير الذى ورثته أمّها عن جدّها ، وهو لا يحوى إلا الأمّ وابنتها ، تقوم بأمرهما فيه حفنة من الخدم القدامى آلوا إليهما فيما آل من التركة .

وكان زوج الخيل « المسكوفى » الأصيل يدق الأرض بحوافره تحفزا وقلقا ، ويصهل فى الفينة بعد الفينة ، كلاهما مرفوع الرأس ، تنتشر أذناه ، وتختلج خياشيمه ؛ فيسارع السائس إليهما مهدّئا ، يربت ظهرا فتيا ، أو يتحسس عنقا مخمليا .

ولما ظهرت « ملك » هبّ الجمع يستقبلونها واقفين : السائس والحوذى و « ريحان أغا » الذى أسرع إلى جانبها ، صاحب حق ،

يحييها ويحمل عنها حقيبتها ، تضيء سحنته القاتمة ابتسامة عريضة . فأجابته باقتضاب ، وجلست مطرقة ساهمة ، وقفز هو يتخذ له مجلسا إلى جانب الحوذى ، على حين انطلقت الخيل قذائف تنهب الطريق الخالى المألوف لديها نهبا ، ميممة شطر « مدرسة . . . الثانوية للبنات » .

كان الوقت بعدُ مبكرا . فترددت « ملك » على عتبة المدرسة تتلفت حولها مقطبة الجبين مغضبة ، فابتسم « ريحان أغا » بتحنان وهو يتأملها ، ثم مال على أذنها هامسا :

« أى بنيتى . ليس هناك سوى أمك ، فهى لك الملاذ فى هذه الدنيا ، وهى الناصح الأمين . لا تغضبى منها ، فليست والله بمتجنية عليك ، ولا تبغى من وراء حزمها معك سوى مصلحتك ودفع الضرر عنك ! »

فاضطرم محيّاها ، وأجابت بحدّة :

« ما أظنها والله إلا مبغضتى - يلذ لها إذلالى ويسعدها إشقائى! أوَ تلك حياة أحياها ؟ »

فرفع الرجل عينيه مبهوتا نحو السماء ، وقلب كفيه يبسطهما أمامه :

« اسألى الله سبحانه أن يديم عليك - يا طفلتى - تلك الحياة

التى تلعنينها ، استغفرى ربك ، أنت حتما لا تعنين قولك ، أنت تهذين ! » .

ـ « كيف تقول ذلك يا عم « ريحان » ؟ أو سمعت وصف « سعدية » لحياتها المنزلية الهانئة ؟ و« فكرية » و « لواحظ » ؟ كلهن يتمتعن بالحرية ، ويتصرفن فى أفعالهن ، وينظر إليهن آلهن النظرة إلى من شبّ عن الطوق ، له كيان ، وشخصية مستقلة ، ورأى . إذا عنّ لإحداهن الخروج فى أى ساعة من ساعات اليوم خرجت ولم يقف فى طريقها أحد . وإذا أعجبها ثوب اشترته دون استشارة أمها أو عمتها أو خالتها . أما أنا . . . » .

واندفعت الدموع متزاحمات إلى مقلتيها ، وارتعدت شفتها ، فأسرعت تلقفها بأسنان صغيرة ناصعة ، وهى تعبث بطرف قدمها فى التراب توارى اهتياجها .

فأحاط « ريحان أغا » كتفيها بذراع معروقة قوية ، وسار بها خطوات داخل فناء المدرسة الخالى إلا من بضع فتيات انتشرن فى أرجائه . فدفع حقيبة الكتب فى أحضانها ، وقال يعرك أذنها مداعبا :

« سيكون لى معك حديث طويل حين رجوعك إلى البيت . سأنتظرك كالمتبع بالمركبة فى الثالثة والنصف تماما على باب المدرسة ،

فأطوف بك حول « الجزيرة » أنزهك حتى تهدأ أعصابك ، ويرتد عقلك الشارد إلى رأسك الصغير ، وبذلك تستطيعين التفاهم معى ووعى نصائحى . اتفقنا . . . ؟ » .

ومسح على ضفيرتيها الحريريتين بزهو . وبغتة انحنى يحماق فى وجهها بعينيه الضيقتين لما بهما من حول ، ثم أخرج لسانه يلعق به الهواء ليضحكها .

فتطلقت أساريرها ، وقد زال توتر اللحظة ، وغضت بصرها وأجابت فى استكانة :

« نعم يا عم « ريحان » ـ اتفقنا ! » .

فأكبّ يقبّل مفرق شعرها ، ويدفعها أمامه بحضها على التقدم واللحاق بزميلاتها ، وهو يتمتم :

« حماك الله يا صغيرتى الطاهرة من الوسواس الخناس ، إياك ورفيقات السوء ... مع السلامة » .

فلوّحت له بذراعها فى وجوم دون أن تلتفت إليه .

وما انحدرت المركبة به فى منحنى ؛ وغاب كرّ عجلاتها . حتى برزت ثلاث فتيات من وراء شجرة كافور كنّ يختبئن وراء جذعها الغليظ ؛ فتحلقن حول « ملك » ضاحكات ، ساخرات ، يستند بعضهنّ إلى بعض متمايلات ؛ كأنما لا يملكن استمساكا ولا صدّا

لعبثهنّ . وجعلن يشرن إليها ويتهامسن فيحتدّ مرحهنّ ويعنف ؛ ثم يترنحن ويهتززن بشدّة ، حتى لتكاد كل منهنّ تستلقى على قفاها وهى تضرب فخذيها وتقفز طربا .

فالتهبت وجنتا الفتاة ، وتسمرت مكانها تزدرد ريقها بصعوبة ؛ فاصطنعت بسمة عرجاء ، وغمغمت برجاء :

« صباح الخير » .

فانفجرن هازئات فى ثورة كظيمة .

قالت « فكرية » ويداها على خاصرتيها :

« كيف تحدّثيننا يا سيدة الكل ؟ ألسنا من طينة غير طينتك ـ لا ننتسب إلى أسرتك الكريمة ؟ » .

وصاحت « لواحظ » تلوّح بقبضتها فى وجه « ملك » المذعور :

« أأنت على شاكلة وحدك ، وبنات المدرسة كلهنّ على شاكلة أخرى ، كما يُفهمك خادمك أسود الوجه ـ خسف الله به الأرض ؟ » .

وتدخلت « سعدية » محتدّة :

« ماذا تظنون أنفسكم يا قوم ؟ سادة والناس عبيد ؟ شىء من التواضع يا خلق الله ! » .

وتجمهرت البنات تدعوهنّ المناقشة والضجيج ، حتى اتسعت

الحلقة ، فشملت من كان فى الفناء ، واشتركت كل من عنّ لها الحديث بكلمة جارحة أو ضحكة ساخرة . وعلت همهمة الاستنكار ، وغمغمة النفور والحقد ، و «ملك» بينهنّ زائغة البصر ، حائرة الدمع ، تنفرج شفتاها فى ابتهال صامت ، ويغشى محياها حزن وهلع .

ولم ينقذها إلا دوىّ الجرس مجلجلا يؤذن بابتداء الدرس ؛ فانفضت البنات من حولها محنقات ، وقد أجمعن على مقاطعتها ونبذها من زمرتهنّ .

وفى حجرة الدراسة جلست مشتتة الفكر ساهمة ، مخضلة الأهداب . فلما سألها المدرّس عما استذكرته فى يومها ، تلجلجت وزاغ عنها الجواب الصواب ، وهى التى تمضى الليل مكبّة على كتابها تحت رقابة أمّها ، فأعاد عليها سؤاله ، وحاورها ليخرجها من صمتها ، وضيّق عليها الخناق ؛ فانفجرت باكية وسط قهقهة البنات الجذلة الشامتة .

وفى قاعة الطعام اندفعن جامحات صاخبات يشغلن كل المقاعد ويدفعنها جانبا بالمناكب والمرافق ؛ فارتطمت بجدار وقفت بجواره منكسة الرأس ، تفرك كفيها وتعض شفتيها حرجا ، والبنات يتنافسن فى إلقاء العظام حولها ، وهنّ يرسلن صفيرا داعيا

كمن يحض كلبا على طعام .

وهجمت عليها إحداهنّ تخمش ذراعيها البضتين فى تشفّ ، تدميهما بأظفارها القذرة ، وهى تموء كهرّة غضبى :

« لا تؤاخذينى ! فأنا بطبيعتى أمقت الكلاب ! » .

فاستغرقت الأخريات فى ضحك أهوج مسترسل .

وما انتهى النهار ، حتى زحفت « ملك » مهدّمة ، مضعضعة الأعصاب ، مسلوبة الحواس إلى المركبة المنتظرة على باب المدرسة . فانزوت فى ركن منها تدس رأسها فى أحضانها ، مصدوعة الفؤاد ، وتنشج نشيجا عاتيا جافا هز كيانها يزلزله .

وفى غدها ذاقت الأمرّين ، وتتابعت عليها الأيام تعانى الأهوال من كيد البنات ، وسعة حيلتهنّ ، وتعدّد فنونهنّ لإذلالها وتحطيم كبريائها وإرغام أنفها . حتى انهارت مقاومتها . ففاتحت أمّها ذات ليلة فى أمر نقلها إلى مدرسة أخرى تبدأ فيها حياة جديدة ، وتنشئ علاقات طيبة مع زميلات تطمع أن تجدهنّ أرق حاشية وألطف نفسا ، وأقرب إلى روحها من زميلاتها فى هذه المدرسة ، فتقرّ عينا ، وتهدأ بالا ، ويتفتح ذهنها لدروسها كسابق عهدها . دافعت عن قضيتها بكل ما فى كيانها من ذرّة حيوية ، تكلمت بحماس ، وحاولت جاهدة أن تشعر أمّها بما تقاسى من اضطراب

نفسانى يربك عقلها ويضعف ثقتها بنفسها ، ويجعلها أضحوكة مجتمعها الصغير . فتحت لها قلبها ، وكشفت عن مشكلاته التى استعصت عليها . أطلعتها على تدهورها أدبيا ومعنويا ، وهى لا تملك إلا الحسرة على حالها . وصفت لها قسوة التيّار الذى يجرفها دون ما شفقة ، وأفصحت عن عجزها عن مقاومته . قبّلت يدى أمّها وانحنت عليها تمرغ وجهها على ركبتيها ، وهى تشرق بدموعها ، وتستحلفها كى تنقذها وتعمل على إرجاع السكينة إلى روحها المزعجة .

فاعتدلت « سعادات هانم » فى جلستها ، تشمخ بأنفها ، وتنفض عن عنقها الذراعين المتشبثتين به فى ابتهال . وصاحت بصوتها الجهورى الذى طالما ارتعدت له فرائص أهل الدار :

« ما هذا الهراء الذى أسمعه ؟ ما هذا الضعف والخور ؟ أمن أجل حفنة فتيات وضيعات تفرّين وتتركين لهنّ المجال ؟ مالك وما لهنّ ؟ أنت فى حالك وهنّ فى حالهنّ . لا أستطيع فهم قولك إنهنّ سبب اضطراب ذهنك . أحاجِىّ باطلة ! أنت الخاملة ... الكسول ... بطيئة الفهم ! »

ففتحت « ملك » فمها تحاول « إفهامها » ، فكان نصيبها لطمة طرحتها أرضا على ظهرها . وأمرا بالذهاب تَوا إلى فراشها .

فكفكفت المراهقة الحيرى دموعها ، وتحاملت تلملم نفسها ، وقد زمّت شفتيها فى حزم ، وانسحبت دون أن تلتفت ثانية إلى أمّها .

وفى الصباح ، سعت إلى الفتيات ذليلة مغلوبة على أمرها تسترضى وتسترحم ، وتتقرّب زُلفىٰ ؛ حتى رضين عنها وعفون بعد لأىٍ ، مشترطات كى يقبلنها فى زمرتهنّ أن تجاريهنّ فى كل أفعالهنّ دون تردّد ولا ترفع . فأكبت التعسة لهفىٰ تنهج منهجهنّ وتعبّ عبًّا من دستورهنّ : اختارت مدرّسا « تحبه » وتعاكسه بغمزاتها ولمزاتها أثناء الدرس ، ومضغت « اللادن » ، ونفثت دخان اللفائف مستخفية معهنّ وراء دورة المياه ، وشرعت ترشو البوّاب وتتسلل بصحبتهنّ إلى دور الصور المتحرّكة تنظر بعين والهة إلى أبطال التمثيل ، وتحملق فى أجواء الخيال تحلم بفتاها ، وراحت تجوس معهنّ الشوارع والمتنزّهات العامّة تلهو وتمرح ، ويعاكسها الغوغاء فتجاوبهم وتشاكسهم ، وتتلقى عنهم فنون الحياة كما يفهمونها ...

وكذبت على « ريحان أغا » عندما تأخرت فى جولاتها ، زاعمة أنّ سبب تأخيرها دروس إضافية تتلقاها بعد انفضاض المدرسة ، وتشدّقت بالقصص والروايات الشائنة التى تشيعها سيئات الخلق

عن مدرّساتهنّ وصويحباتهنّ . وتلقت أول قبلة على ثغرها من مدرّب «التنس» بالمدرسة . واشتطت فى حماقاتها وطيشها ، وفاقت البنات مجونا واستخفافا ، حتى عقدن لها لواء الزعامة عن طيب خاطر . كيف لا وقد اندفعت تسترضيهنّ فتنفق عن سعة ، وتشترى لهنّ أكواما من الحلوى والفاكهة وكل ما اشتهته نفوسهن . وتحملت وحدها دفع الرشوات ، فولينها تنظيم المغامرات وَفقَ هواها .

كانت تقترض من «ريحان أغا» فلا يبخل عليها مربيها الحنون ، بل يسخو لها بما سألت من حرّ ماله . فلما لم تعد تقنع بما تناله وإن كان كثيرا يتوالى كل يوم ، بدأ الشك يساوره والقلق يخامر قلبه . فراجعها فى لين وترفق . فما كان منها إلا أن ثارت به وغاضبته أياما ، وقد تبدل خلقها ، وزادتها «الزعامة» رعونة واستعلاء . فدفعته يطالب أمها «بمصروف» شخصى لها . وانتظرت عن بُعْد .

ثارت «سعادات هانم» ـ كما تخوَّفت «ملك» ـ فى وجه تابعها الأمين ، ورمته بالحماقة ، تذكره بأنّ النقود فى يد البنات مفسدة ، وأن . . . وأن . . . فتحمل ثورتها فى استكانة ، حتى رضيت أن تخصص لابنتها مبلغا زهيدا بعد أيام من المحاورة والإلحاف فى السؤال عن وجوه إنفاقه . كانت تجربة محرجة لم تحاول «ملك»

تكرارها . وسلكت أيسر السبل . اندفعت تسلب أمّها ما تستطيع . امتدت يدها إلى « النقود الصغيرة » التى تتركها تحت وسادتها أو فوق منضدتها أو فى درجها . وتبلد حس الفتاة ومات ضميرها ، حتى ارتضت أن تترك أمّها تتهم الخدم بالخيانة ، وتمضى هى هاربة إلى مدرستها والثورة فى البيت أتون يتأجج .

وتتابعت الحوادث بعد ذلك مسرعات . وانزلقت « ملك » تهوى بتفكيرها وأفعالها نحو الحضيض . قطعة حجارة تتدحرج مندفعة على جوانب جبل ، حتى ارتطمت بالقاع ، فتفتتت محسورة عندما وافقت بنات جماعتها اللاتى تفتق ذهنهن عن الخلاص من حياة « الرق » للآل والمدرسة بالزواج من أحبائهن ...

نثرت « ملك » فى مخيّلتها صور من قابلتهم من الرجال ، فوجدت أن أكثرهم قربًا إلى قلبها المتخبط هو مدرب « التنس » فارع الطول ، عريض المنكبين ، ضامر الخصر . شعره منفوش فى إهمال سَبَى قلبها الغِرّ . وفيه خشونة جذبتها تربطها إليه وتذكرها بأبطال الروايات السينمائية ... وفوق ذلك فهو مانحها قبلتها الأولى . وهيهات أن تنساها ! إنها تذكر ذلك اليوم جيدا . لم يكن الرجل ليجرؤ على الإقدام على فعلته لو لم تسع هى إليه فى ملعبه النائى فى طرف الحديقة القصى وتمضى قرابة الساعة فى محاورة معه ومناوشة ،

حاولت جاهدة خلالها أن تخرجه من تزمّته وشعوره بالدنيوية حتى يضيع رشاده ويأخذها بين ذراعيه ، كما قصّت عليها صديقاتها ماحدث لهنّ . فلما يئست منه ولم تنجح إلا فى إثارة مشاعرها هى ، ارتمت عليه تتشبث بعنقه رافعة إليه وجهها ، زهرة نَدِية متفتحة ، فنظر الرجل إليها والدم يدوى فى رأسه يتأملها : مَلَكًا رائع الجمال يستجدى ، ضَلَّ طريقه إلى الجنة فأخذ بيده فى ذلك اليوم إلى الجحيم . وكان يوما ! .

فلما أثارت صديقاتها موضوع زواجهن طار خيالها إليه . فدبرت ما يلزمها من مال ، وفاتحته دون مواربة فى زواجهما . فتردّد الرجل لحظة متخوفًا من المسئولية ، ولكنه مالبث أن أذعن لرغبتها عن طيب خاطر أمام ادعائها أنها يتيمة الأبوين حرّة التصرف فى نفسها ، وأن « عمتها » التى تعيش معها لاإرادة لها إزاء إرادتها هى . فضغط ذراعها ـ بخشونته التى تعشقها ـ موافقا ، واجتذبها ذاهبًا بها .

تزوّجت « ملك » . وتزوجت فتاتان أُخريان من جماعتها : إحداهما بنى بها صبىّ كوّاء لامع الشعر منمقه ، يرفع يديه عن درّاجته وهو يسابق بها الريح عبر الحارات والأزقة . والأخرى بنى بها تلميذ ثانوى مدمن الرسوب ، يحفظ عن ظهر قلب أشعار

الغزل وعبارات الغرام . أما سائر الفتيات فقد أحجمن فى آخر لحظة وهربن ؛ كما أفلتت صاحبات الاقتراح أنفسهن - « فكرية » و « لواحظ » و « سعدية » - بعد أن أوقعن من أوقعن وكبَّلنهنّ بقيد متين .

* * *

أضحت « ملك » تمضى النهار مع زوجها ، وتنتظر « ريحان أغا » على باب المدرسة فى الثالثة والنصف تماما - كعهدها - ليعود بها إلى البيت .

وذات يوم اصطحبها « حنفى » لتزور آله فى « المغربلين » ، فتعثرت ربيبة القصور مستندة إلى ذراعه ، والظلام دامس فى وضح النهار ، تتحسس مواقع قدميها على درجات السلم الخشبى المتأكل الذى يئن متوجعا كأنما يسترحم كى يخففا الوطء ، وأخيرا وصلا إلى كوّة دفعها زوجها داخلها ، فتوقفت الفتاة على عتبتها تتحشرج فى حلقها شهقة ، وهى تشعر أنها خطت داخل بئر عفنة تنضح رطوبة ، وأخذت عيناها تتعودان الحلكة الكثيفة شيئا فشيئا ، فرأت على ضوء ذبالة شاحبة تتراقص فى إعياء امرأة غائرة الحدقة ، ضامرة الصدغ ، تتعلق بها شرذمة من أطفال مهزولين صفر السِّحَن ، وعلى قطعة من حصير بال حطام رجل ملقى ، يستبد

به سعال عنيف يمزقه يكاد يزهق روحه ، كلما سحب أنفاسا من « جوزة الحشيش » التى يحتضنها بذراعيه المعروقتين .

تسمَّرت « ملك » على عتبة الكِنّ الذى تقيم فيه أسرة زوجها ، وقد ظنت بعقلها الظنون . فأمرَّت كفها على جبينها كأنما لتزيح الغشاوة التى تنسدل عليه ، أو لترفع الحجاب الذى يطمس عينيها ، ولكن هيهات ... انطبعت فى ذهنها صورة الحضيض - ببؤسه وهوانه - مجسمة . فسرت فى كيانها كله قشعريرة كدبيب النمل بأرجله الخشنة تخدّرها وتدغدغ أعصابها . ولكنها سرعان ما زايلتها عندما أحاط « حنفى » كتفيها بذراعه - التى تعشق قوّتها وخشونتها - يربتهما تارة ويمسح شعرها تارة أخرى .

وكانت « ملك » قد جاءت لهم بهدايا متعدّدة على ألوان شتى من طعام وملبس . فأكبت توارى صدمتها وتتلهى بتوزيعها على كل منهم ؛ فما كادت تفعل حتى نسوا تهيُّبهم ، وتكالبوا على اللحم والفاكهة والثياب ينهشونها من لفائفها ويتخاطفونها ، غِرْبانا مسعورة ؛ وعلا صراخهم وضجيجهم وهم يتنازعون ويخمش بعضهم بعضا . ثم أحاطوا بها وقد حشروا أشداقهم حتى كادت تتمزع ، وراحوا يتشدقون ويتمصصون ، وأقبلوا عليها

يتشممونها محوّمين عليها تحمل معها بعد شيئا .

فتقهقرت « ملك » زائغة عينها ، مذعورة نظرتها ، تستنجد فى صمت بزوجها ؛ فقهقه « حنفى » ووقف أمامها يحميها ويهش عنها إخوته . فضغطت ذراعه شاكرة ؛ وهمست تغص بريقها :

« لنخرج ـ أرجوك ! » .

فخرج بها ؛ ولكن بعد أن همس إليها بدوره :

« أليس معك بعض النقود ؟ هم فقراء مساكين ، وسيدعون لك بالخير طويلا ! » .

فدفعت إليه بحقيبة يدها دون أن تنبس بلفظ ، ليلتقطها ملهوفا يلعق شفتيه بلسان رفيع ، حرباءة متلمظة . وارتعشت يده فى تشوّق حين دسها فى الحقيبة ثم أخرجها قابضة على رزمة من الأوراق المالية مختلفة الفئات ؛ فأخفى فى جيبه دَسا ما انتقاه ، وأعطى أباه وأمّه ما استبقاه ؛ ثم سحب زوجه وخرجا .

* * *

وزادت الأيام « ملك » تعلقا بـ « حنفى » وشغفا ، كما زادتها جرأة وتهوّرا . فتوالى غيابها عن دروسها ، وطال أشهرا متعاقبات عن المدرسة ، مصطحبة زوجها ممرّن التنس . فلم يلبث أن طرد من عمله وشرّد . فلم يأبه بذلك ولا ابتأس ، وقد تكفلت به

زوجه . فكثر الضغط عليها فى طلب المال ، وكثرت ـ تبعا لذلك ـ سرقاتها من البيت .

ومرّت الأيام ...

ثم كانت الطامة الكبرى . أرسلت إدارة المدرسة إلى أمّها التقرير الشهرى عن سلوك ابنتها ومدى مواظبتها وتقدّمها فى علومها . وكان صك عار حمدت « ملك » ـ وهى تتلوه بشفاه مرتعشة ـ للشيطان معونته ، إذ أخضع لها قلب خادم أجزلت رشوته ، فحمل إليها المظروف قبل أن يصل إلى يد أمّها . فمزقته بتشف وغيظ قطعًا صغيرة حرقتها بنفسها فى الموقد الحجرى فى مطهى البيت النائى . وتنفست الصعداء وهى تنفض يديها مما يكون قد علق بهما من تراب . وراحت تتصيد بعد ذلك كل كتاب يرد من المدرسة وتبيده .

ومرت الأيام ..

وحدث أن وصل التقرير المدرسى الشهرى فى غير ميعاده . حمله أحد السعاة توّا إلى البيت . وكان الوقت ضحى والخدم منهمكين فى أعمالهم ، والحديقة خالية إلا من « الهانم الكبيرة » جالسة تصطلى فى الدفء الذهبى ، وترشف قهوة الصباح بتلذذ متمهلة . فتقدّم الساعى منها وحيّاها وأعطاها المظروف . فما وقفت على لب

الرسالة حتى هبت ملدوغة تضرب كفّا بكف ، تنوشها الحيرة وتذهب بها الظنون كل مذهب . أرغت وأزبدت . سبت ولعنت آباء الخدم وأجدادهم وقد أقبلوا على صياحها مهرولين ، حتى الساعى المسكين لم يسلم من بعض الرذاذ . وظلت يومها كله ثائرة كأنها نمرة متحفزة ، تلكم الهواء وتركل الأرض . ورفضت أن تتذوق طعاما . حتى إذا عادت « ملك » ـ يتبعها « ريحان أغا » حاملا حقيبة كتبها ـ ألقت بنفسها عليها تتشبث بشعرها تطرحها أرضًا . عفرت بوجهها الأديم ولوت ضفيرتيها الحريريتين حول رسغها ، ثم انتضت حذاءها وهوت به على كتفى الفتاة وظهرها تلهبها ضربًا مبرّحًا .

فرفعت « ملك » ذراعيها تذود بهما عن رأسها الضربات . ثم تخاذلت قواها ، وبردت أطرافها ، ودارت الأرض بها ، وغابت عن الوجود . وانبثق من ثغرها خيط رفيع من الدم القانى ، وسال على صدغها متدحرجا على عنقها ، ثم انحدر على صدرها يلطخ مريلتها الناصعة .

فانزعج الخدم ، وهرعت زنجية منهم سمحة ضخمة الجثة ، تحيط سيدتها الكبيرة بذراعيها القويتين فى حزم ، وتجذبها بعيدا عن الفتاة ، على حين انحنى « ريحان أغا » على ربيبته محمحما . فأثار

منظره « سعادات هانم » حتى استدرات نحوه تصب عليه جام غضبها ، وترميه بالغفلة ، وتصمه بالعته والخبال .

وطال إغماء « ملك » . نضحوا وجهها بالماء ، وفركوا كفيها وباطن قدميها ، ودسوا تحت أنفها قارورة « النوشادر » . دون طائل. فهرول « ريحان أغا » وجاء بطبيب على عجل . فألقى نظرة شاملة على العليلة ، وعدّ نبضها وفحص رئتيها وجنبيها ، ثم اعتدل يخلع منظاره :

« سليمة بإذن الله . دعوها مستريحة . لقد تلقت صدمة عصبية أكثر منها جسدية . ولكن ربنا ستر ... الجنين بخير ! » .

فكأنما وقعت الواقعة ، أو أخذت القوم الصاعقة . شلت الأجساد ، وتحجرت الحدقات ، وفغرت الأفواه ... ثم صرخت « سعادات هانم » ملتاعة صرخة مدوية ، وهجمت على الطبيب تغرز أظفارها فى ذراعه وتهزه هزًّا ، وعيناها رجراجتان ، كحبتى زئبق ، تستكشفان خلجات وجه الطبيب :

« ماذا تقول ؟ ماذا تقول ؟ أعد على سمعى كلماتك ! لم أفقه قولك ، ولا استوعبت معناه ! بربك أرح بالى ! » .

فأرتج على الطبيب الغافل ، وفاته استنتاج الحقيقة وهو يربت كتف « سعادات هانم » مشجعا ، ويقول بتؤدة :

« اطمئنى يا هانم ـ اطمئنى . قسما إنّ السيدة الصغيرة بخير ، ولا داعى هناك لكل هذا الانزعاج . كما أنّ الجنين لم يصب بأدنى أذى ، وهو يتحرّك فى أحشائها بأمان ... »

فغاض الدم فى وجه « سعادات هانم » وتهالكت فى صمت على مقعد تتعلق بذراعيه ، وهى تسأل بصوت هادئ أبعد خطرا من عتو العاصفة ، تلوّنه رقة أمضى من نعومة السم :

« والجنين ـ كم عمره ؟ » .

ـ « أربعة أشهر يا هانم . ربنا يتمم بخير ! » .

ولملم الطبيب أشياءه وهو يبتسم راضيا عن نفسه الرضا كله ، وأصلح من وضع طربوشه ، ودس الجنيهين اللذين أعطيا له فى حافظته ، وقرأ عليهم السلام ، ومضى ... وانفجر الكون ...

ولولت الخادمات يتمايلن أسى ، ولطمن الوجوه ، وشققن الجيوب .

وجلست « سعادات هانم » مكانها ترقبهنّ بنظرة جامدة كأنما نحتت من صخر . فلما التففن حولها ينهضنها مواسيات لم تفه بحرف ، بل هوت بينهنّ شَلاء .

* * *

ومضت أيام ثلاثة . قطعة جحيم ، البيت تسوده كآبة ولوعة ،

والكل يشعر بالعار يلطخه ويتعلق بأذياله . وانزوت « ملك » منكسا رأسها مقروحة عيناها فى ركن من حجرة أمها ، ذليلة مهيضة الجناح.

وانشقت الأرض عن أقارب وأهل كثيرين ازدحم بهم القصر على رحبه ، يترقبون الأحداث ، وقد بلغهم أن « سعادات هانم » تتردّد بين البقاء والفناء .

وحلت ساعة ، ففتحت المريضة عينيها لأوّل مرة بجهد ، ووجهها يقطر شحوبا ، ويتفصد عرقا غزيرا ، ودارت ببصرها فى السّحن المنحنية عليها : من طبيب قلق ، ومحام متسائل ، وجارة مشفقة ، إلى خادمة ملهوفة ، وابن عم آمل ، وابن بنت خالة طامع !

ثم لمحت « ملك » ...

فهبت متحاملة على نفسها تشهق وتضرب بذراعيها الهواء ، غريقا يقاتل متخبطا . وجحظت عيناها ، وتحشرجت أنفاسها ، وهى تصيح مجنونة :

« أخرجوها من هنا - اطردوها ! الكلبة . الفاجرة ! اطردوها ! اطردوها ! اغربى عن وجهى ! اغربى ! » .

فأحاط الجمع بالأمّ يهدّئون من روعها ، ووخزها طبيب بمخدّر ، فانتزعت ذراعها منه قسرا ، ولطمت السلاح فألقته أرضا ، واعتدلت فى جلستها ، تحترق جمرتان فوق عظمتى

صدغيها . ثم أشارت إلى محاميها أن اقترب ، وقالت بصوت جهورىّ لا يشوبه وهن :

« أعرنى أذنيك هنيهة وكن واعيًا قولى . أنا الآن ـ كما يشهد الأطباء ـ فى تمام قواى العقلية . فاسمعونى جميعا : لقد جاءت وحيدتى « ملك » شيئا إمرا ... غافلتنى وحملت سفاحا ! » .

وكأنما طعنتها كلماتها ، فقد هوت بجمع كفيها تضغط قلبها ، ثم استطردت ودمعها يسفح :

« أُشهد الله أنى بريئة منها ! » وكررتها ثلاثا : « بريئة منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب . لعنة الله على من يفترى علىّ منكم لفظا لم أقله ! لعنة الله على من يغيّر وصيّتى من بعد مماتى ! »

واستكتبت محاميها ما استكتبت ، وتحاملت تعض شفتيها الزرقاوين ، حتى وقّعت بخط واضح .. وفجأة انهارت حطاما . وسكنت إلى الأبد .

* * *

جررت « ملك » قدميها جرا ، ووجهتها « المغربلين » تمشى بعض الوقت ، وترتمى حينا على الطوار تلتقط أنفاسها المضطربة ، وارتكنت إلى جدار مرة ، فطرق سمعها جرس يجلجل ، فلما اعتدلت تتأمل البناء الذى تستظل به ندّت عنها شهقة خنقتها ، فتحشرجت فى حلقها ، وانهمرت دموعها ، وما لبثت أن هرولت تفرّ ، متخبطة تتعثر ،

تنأى عن مدرستها قبل أن تلمحها تلميذة أو معلمة أو خادم .

فلما لاح لها بيت زوجها بين أقرانه قبور الأحياء ، انتعش فؤادها المثقل شيئا ، وقد أضحى الكنّ المظلم العفن الذى نفرت منه قبلا منتهى أملها وشمس حياتها . فأكبت على السلم المتأكل الموصل إليه تزحف صاعدة ، وقد بلغ منها التعب مبلغه . نقرت بابه بأنامل مثلجة ترتعش . فما فتح لها «حنفى» حتى ارتمت على صدره تتعلق بعنقه منتحبة تنشج ، وتسكب فى أذنيه قصة ذلها وتشريدها .

مرّت دقائق وهو يستمع فى صمت هالها منه خلالها جمود ، ثم نفور ، ثم فظاظة حين دفعها عنه بقسوة صائحا :

« مالى ولكل هذه البلايا ؟ ما شأنى بك حتى تلقى جثتك علىّ - صخرة على صدرى ؟ » .

فصرخت ملسوعة ، وتشبثت مستميتة بأطراف جلبابه . وشقت صرخاتها جنبات البيت الواسع المتهدّم متردّدة أصداؤها ، روح ضالة تستنجد ، وقد لذعتها ألسنة السعير تهب عليها لافحة .

فتجمّع الجيران . أناس ضامرون كأنما من الأجداث هم لساعتهم ينسلون ، طبع إدمان المخدرات على سحنهم الكالحة صبغة لا تفوت العين . وقفوا يرقبون المشاجرة الحارّة ببرود ، ثم

تقدمت شوهاء منهم مكتئبة إلى « ملك » ، ورفعت كفا ذابلة مسودة الأظافر إلى كتفها تنحيها عن « حنفى » قائلة :

« دعيه يا امرأة ، ربنا يحنن عليك . هو مسكين لا يجد ما يتبلغ به . الرجال كثير ! » .

وتدخل ذو صوت أجش : « أنتِ حتما تعرفين أبا جنينك ! حرام التجنّى على عباد الله ! اذهبى إليه بحملك ! » .

وقال ثالث :

« حنفى فقير لن تستخلصى أو تفيدى منه شيئا ! دعيه لآله ! » .

وقال رابع : « لن تعدمى فحلا سواه ... والفحول كثير ! » .

وتحمس « حنفى » متشجعا ، فأزاحها عنه بغلظة وهو يقول :

« ما هذه الرزية التى ارتمت علىّ ؟ أغيثونى يا ناس من هذه المصيبة ! هى تدعى أنى زوجها ! زوجها ... أتسمعون ؟ ها ، ها ، ها ! ولماذا لم أدعكم إلى زفافى وأنتم أحبائى وعشيرتى ؟ اسألوها بربكم ... اسألوها متى تزوجتها ؟ وأين ورقة الزواج ؟ أف لهؤلاء الساقطات ! » .

وولى البائسة دبره ، وهمّ بدخول الكنّ الذى بخل به عليها يؤويها ليلتها ، فهجمت عليه تنشب أظفارها تغرزها فى ثنيات عنقه وتجذبه ليخرج إليها ، فاستدار نحوها ، والتحم كلاهما فى قتال

عنيف أطبق هو خلاله على عنقها المرمرى بأصابعه الغلاظ يضغطه فيكاد يزهق روحها ، وهو يصيح ساخرا متشفيا كأنما هناك بينهما عداوة منذ بدء الخليقة :

« لم يكن المأذون سوى صديق لى كوّاء ارتدى ثياب أبيه المقرئ ... أتسمعين ؟ فلم يكن ما بيننا عهد أو ميثاق . أتسمعين ؟ أكنت مجنونا حتى أوثق نفسى إليك عمرى ؟ لا شأن لى بالذى تحملينه بين أضلعك وتحاولين إلصاقه بأب - بى ، وأنا براء منك ! اغربى ! اغربى عن وجهى ! » .

فدوّى الدم يهدر فى دماغ « ملك » نابضا فى أذنيها يقرع طبول موت ، وغشى عينيها يصبغ الدنيا بلون الجريمة . فغام بصرها ، وتراقصت المرئيات مهوّشة متداخلة ، واضطرب تنفسها كأنما تشهق تحت ماء . حتى إذا بلغت منها الروح الحلقوم جمعت شتات قواها وركلت الشيطان الجاثم فوق صدرها يضغط عنقها ركلة ألقته عنها على ظهره ليرتطم - والمكان ضيق - بحاجز السلم المتأكل ، فهوى به من شاهق ، وهو يصرخ صرخة نكراء تقشعرّ من هولها الأجنّة فى الأرحام .

* * *

لفظ السجن « ملك » بعد عامين ، وقد نضب من جسدها

لفظ السجن « ملك » بعد عامين ... وعلى ذراعين معروقتين سفعتهما الشمس حملت ابنها ...

رحيقه ، وخبا من روحها شعاعه . شحب محيّاها ، وانطفأت عيناها واكتسبت قسماتها جمودا من حياة القسوة والخشونة ، قناعا لا يستشف المرء خلاله أفكارها ، ولا يصيب فى تلمسه مشاعرها . وعلى ذراعين معروقتين سفعتهما الشمس المحرقة ، حملت ابنها — كائنا كبير الرأس مثقله لا يكاد يرفعه عن كتفها المضناة ، يحيط عنقها الأعجف بعودين يبيسين . على حين تقوّست ساقاه وتدلتا .

فتحوا لها الباب الحديدىّ الرهيب ، فخرجت فى صمت — فى استسلام يشوبه حزن ، كأنما يطردونها من أمن إلى غائلة ، من نعيم إلى أرض يباب . خرجت لا تعرف لها سبيلا ولا مسلكا . أين المفرّ ؟ أين المقرّ ؟

فناداها من خلفها أن تمهلى صوت متهدّج تتطاحن فيه دموع وضحكات . تسمرت مكانها مطأطئة الرأس ، حتى إذا ضغطت كتفها تجذبها كف فاحمة متكسرة أظفارها تعلوها القذارة ، أكبت لهفى تقبلها وتمرّغ وجهها بها ، وهى تتنهد ، ثم تتشممها وتتحسسها بخدّها .

قال « ريحان أغا » وهو ينشج :

« الحمد لله على السلامة يا سيدتى « ملك هانم » ... الحمد لله على السلامة ! كنت أعدّ الثوانى عدّا ! » .

وحنى عليها يحمل عنها المِسْخَ التعس . ثم رفع هامته وتأخر عنها خطوة كعهده ، وأشار فى أدب وخشوع :

«من هنا ياهانم.لى حجرة متواضعةفى بدروم أطمع أن تشرفيها ! ».

وأوصلها إلى الحجرة وتركها تتعرّف أركان المكان ومحتوياته القليلة ، وحمل قمقمه النحاسى بعد أن ملأه جمرات حمرا تتوهج ، عيون جانّ براقة ، وهرول إلى مكانه المختار أمام ضريح « السيدة زينب » مندسا فى زمرة « الأتباع » و « أصحاب العشم » من شحاذين ومجذوبات ومتدروشين . لا تكاد سيارة تقف حتى يهرع إليها يفتح بابها وينحنى نصفين - بعظمة الأيام السالفة والقصور الشامخة - يرقى ببخوره الفوّاح زوّار « الطاهرة » ويتلقى - بعظمة أيضا - ماتجود به نفوسهم من قروش وأرغفةمحشوة بالفول النابت.

وفى كل جنازة تجده بين حملة القماقم - لا تخطئه العين : عبدا فارعا فى لون الأبنوس ونفاسته ، طودا لا تفله الأعاصير والغوائل ، عليه حلة رسمية سوداء قد شحب لونها ورق نسيجها ، يسير مرفوع الرأس ، أنفه شامخ وحذاؤه فاغر . طابعه الجدّ والاهتمام بعمله ، ينشق فمه عن أسنانه الناصعة فجأة بين حين وحين ببسمة هانئة حالمة ، هى صدى لخلجة الفرح فى صدره ، وقد ضمن لقمة اليوم لـ « ملك هانم » ! ...

. . . ترقص حافية ، أناملِ قدميها الدقيقة أطراف ورد . . . .

رنين الكأس

كانت فى حيرتها وتلفتها ظبية غريرة - ظبية فرت من جانب أمها تجرب حظها أول مرة فى معترك الغاب . لهـا وداعة الظبية ، وجيدها الأهيف ، وساقاها الدقيقتان ، وعيناها النجلاوان ، تنبعث منهما تلك النظرة الزائغة ، وهى تتمايل مع النغم متثنية فى رقصتها ، دائرة ببصرها بين السكارى الصاخبين . وكانت ترتدى حلة للرقص باليـة تناثرت الفتوق فى مواضع منها ، كأنمـا مزقت الغصون والأشواك إهاب الغزال الشارد .

وقفتُ مبهورة الأنفاس أتأملها . ولو قلت إنها جميلة لظلمتها ، ولم أبلغ من وصفها ما يجب لهـا . كانت هى الفتنة اليَقْظَى والسحر المشرق . لَفْتَتُها تَسْبِى ، وخطوتها تملك على المرء شَغَاف قلبـه . ترقص حافيـة ، أنامل قدميهـا الدقيقة أطراف ورد ، لا تكاد لفرط خفتها تلمس منصة المسرح العتيق الذى يئن ويتوجع عاشقا بَرَّحَ به الوجد .

أثارت رؤيتها مشاعرى - أنا العجوز التى فرغتْ من الدنيا ،

ونفضت يديها منها . فما ظنك بالرجال والشبان الذين يزدحم بهم ذلك الملهى الرخيص ، حيث اعتدت أن أزحف إلى بابه فى منتصف كل ليلة ، أستجدى رُوَّاده .

وكنت وحَفْنة من سابلة الليل ـ بائع اللوز والفول السودانى المقشور ، وبائع عقود الفل ، وفتى وفتاة من لاقطى أعقاب اللفائف ـ ننحشر فى نافذة جانبية وطيئة متطاولين بأعناقنا لنستمتع بما يدور فى دخيلة الملهى .

تهلل رفقائى للصبية الراقصة ، وكالوا لها تحايا المديح والإعجاب . وتمصص بائع السودانى شفتيه حسرة على فقره الذى يسكته على مضض ، ويربطه بزوجه « نبوية » التى يحاكى وجهها المستطيل الأغبر سَحْنة البغل الذى يجرّ عربة التنظيم . وبرقت عينا المراهق ـ لاقط أعقاب اللفائف ـ وهما متشبثتان بالجسد الغض المتلوى أمامه ، ونزع ذراعه ذاهلا ، من حول عنق صاحبته ذات الشعر المنفوش والمنديل الكالح . فعضت الطفلة المرأة شفتها غيرة وكمدا ، وصاحت :

« ألبسونى ثوبها أصبح باهرة الطلعة ، وأرقص خيرا مما ترقص ! » .

فصفع الغلام قفاها صفعة كادت تطرحها أرضا ، وقال بلهجة

السيد صاحب الحق :

« اخرسى ... وامشى ورائى ! »

ومضى فى سبيله تتبعه دامعة العين ـ عبدة رقيقة .

فقهقه رفيقاى الآخران ، واستدارا يتابعان النظر إلى ما يدور على المسرح من ألوان المُتَع .

أما أنا فلم تستهونى الغادة برقصها ، إذ كان من الواضح عندى أنها لا تعرف منه غير اسمه . ولم يخطئ حكمى عليها وأنا الراقصة العتيقة ربيبة المهنة منذ تفتحت عيناى على دنياى التاعسة .

كانت هذه الراقصة جديدة على الحىّ لم تظهر قبل الليلة . وقد استنتجت أنها عذراء . فضحتها نظرتها الجزعة ـ حَمَلاً وسط قطيع من ذئاب . رَثَيت لها . فقد وقفتُ وقفتها يوما ، وجزعت جزعها . ثم ..... ثم تبلّد حسى ، فلم أعد أجزع ، ولم أعد أشفق ... ولقد صدق حَدْسى ، إذ سمعت من الساقى أن « المدام » صاحبة الملهى تلقفتها عند موقف « الترام » وقد عثرت عليها ترتكن إلى عمود النور وتبكى من حيرة ، ويدها فى يد أختها الطفلة . فلما سألتها عن قصتها روتها لها ـ القصة الخالدة العتيدة : زوجة الأب ، القسوة والحرمان ، أحلام الحرية ، الفرار ... ثم الطريق .

فطيبت «المدام» من خاطرها، وربتت شعر أختها، واشترت لهما سميذا وجبنا، ثم جعلت تسوقها شاة إلى ماهاها، وهى تعِدُها بالجاه والمال والحرّية كاملة غير منقوصة.

وكان أوّل ما فعلت «المدام» لكى تضمن بقاء الفتاة فى حوزتها، أن عقدت لها على أحد الأشرار المتبطلين الذين يحومون حول الملهىٰ، يستنزفون أموال صاحبته بحجة حراستها: فحل أسود، كث الحاجبين، غليظ الشفتين، ذو أنف أفطس، يطلق عليه الناس اسم «الحلو». فما ختم بإصبعه وثيقة الزواج ودسها فى طيات جلبابه الحريرىّ القذر. حتى احمرّت مقلتاه وهو يتفرّس فى الفتاة يكاد يلتهمها، وريقه يتحلب، وأصرّ على أن يجرّ زوجه إلى الكِنّ الذى يقيم فيه فوق سطح أحد المنازل. فخاصتها «المدام» من قبضته برفق وكياسة، وهى تخزه مداعبة فى جنبيه هامسة فى أذنه:

«لا تكن أبله! ألا تبغى من ورائها كسبا؟ إذن دعها. فقيمتها الليلة غير قيمتها غدا! الليلة تساوى ثقلها ذهبا! دعها لـ«مدحت باشا» أو «سوسو بك» أو العمدة ذى القفا العريض والشارب المفتول، يملأ كفيك مالا ...!».

فتركها «الحلو» على كرْه، وقد تغلبت شهوة المال

على غرائزه .

ومن هنا كانت نظرة الفتاة الخزعة ، ولفتتها المستنجدة التى تبحث عن مفرّ . فما انتهت القطعة الموسيقية التى تصاحب رقصتها حتى استدارت بكيانها كله نحو العازفين لهفى ، مستعطفة . كأنما تتوسل إليهم أن يواصلوا العزف حتى تعود هى إلى الرقص ولا تغيب عن المسرح والأضواء وراء الأستار المسدولة ، حيث ينتظرها « الحلو » وصاحبة الملهى ليقوداها إلى قدَرها .

ودَوّت القاعة بتصفيق حاد ، وتهلل صاخب معربد ، والقوم يطلبون تكرار العرض . فخيّل إلىّ أنّ الفتاة تنفست الصعداء ، وأقبلت لاهثة تعيد حركاتها البهلوانية الساذجة التى تستدرّ العطف ، دون أن تلتقط أنفاسها . فتصبب العرق غزيرا بين كتفيها وعلى صدرها ، ونضحت به جبهتها . حتى إذا فرغت من أداء رقصتها انسدلت الأستار بغتة تخفيها وراءها . ثم انقشعت عن فرقة كاملة من الراقصات ينشدن ويتمايلن مع النغمات .

فرجعتُ عن النافذة التى أنظر من خلالها ، وجلست على الأرض مستندة إلى جدار الملهى ، وأنا أضرب كفا بكف وألعن حياة الليل القاسية . القصة هى القصة أبدا . بِكر غرِيرَة طَموح ، أو خاطئة صغيرة بائسة . رقصة أو أغنية تعلن بها عن

نفسها كأنما تدل عليها ، فاكتراء ، فتمرّغ فى الوحل ، فحياة ظلام ، فذبول عاجل وانطفاء بهاء ، فطرد وتشريد ، فعودة إلى الطريق : حطام يستجدى الناس ـ مثلى .

ومرّ فى هذه اللحظة بائع خيار . فمددت يدى إليه ، وناديت دون وعى بحكم العادة :

« إحسان لله ! لا يحوجك الله ! » .

فقذف إلىّ الرجل الكريم بثلاث خيارات ؛ رحت ألوك إحداها وأديرها هنا وهناك فى فمى الأدرد هانئة سعيدة ، وأنا أستشعر استمراء لطعمها العذب ، وأكلت الثانية ، أمّا الثالثة فأعطيتها لبائع الفول السودانى لقاء حبات من فوله جعلت أقذف بواحدة منها تلو الأخرى فى فمى ، وأدغدغها جهدى ، وعقلى يسرح مع الأفكار ... ترى ، ماذا يفعلان بها الآن : « الحلو » و « المدام » ؟ يصبغان وجهها بالمساحيق لا شك ، ويعقصان شعرها ، ويعطرانها ، ويهندمانها ، كأنها عروس ليلة الجلوة ، قبل أن يقدّماها صحنا شهيا لشارٍ ملىء الجيب .

وفتح باب الملهى الخارجىّ بعنف على مصراعيه ، ووقف البوّاب ينحنى نصفين ، زلفى ، ويفسح الطريق الخالى أمام سكير فاخر الثياب خرج يترنح ، تحيط به شرذمة من الصحاب ، حالهم

ليست خيرا من حاله . وتتبعهم « المدام » تدفع الفتاة الجديدة أمامها ، تخزها خفية بين حين وحين تحضها على الابتسام ، على حين تسخو هى بابتساماتها على الجميع متملقة فى نعومة .

ويمم الوجيه المخمور وجهه نحو سيارة فارهة كانت تقف إلى جانب من الطريق ، فما رآه سائقها حتى أسرع بها إليه . فتقدّم يصعد وهو يتخبط يمينا وشمالا ، تكاد تخذله قدماه ، حتى إذا وطئ سلم السيارة استند إلى بابها ، وراح يقيء ويقيء حتى أفرغ ما فى جوفه بصوت كريه لحتنى منه غثيان ـ فاختلستُ نظرة إلى الشهيدة المسوقة إلى المذبح ، فطالعنى فى محيّاها المرمرىّ البديع هلع قاتل مقرون باشمئزاز مميت .

وكأنما عز على « البك » ضياع الخمر التى تعب فى احتسائها سُدًى . فمسح فمه بكُمّ سترته ، ودس يده المحلاة بالخواتم إلى صِدَاره ، وأخرج رزمة من الأوراق المالية لم يعدّها ، بل قذف بها فى وجه السائق وهو يصيح :

« إلىّ بأفخر زجاجات الشمبانيا ! » .

ودلف إلى السيارة ، واضطجع على فرشها الوثير ، راضيا عن نفسه الرضاء كله . وانحشرت معه بطانته .

فهبّ بائع الفل يحوم حول السيارة يدفع بعقوده داخلها

من النافذة ، ويقول غمازا بعينه :

« الفل للفل يا بك ! يا أبيض من الياسمين يا ... يا جميل ! » .

فقهقه « البك » مسرورا ، واشترى منه كل ما عرضه عليه . فعاد البائع إلى زمرتنا متهللا فرحان يعدّ نقوده .

فزحفت أنا بدورى إلى « البك » أحجل ، ومددت يدى المعروقة إليه ، قائلة بصوت واهن :

« أعطنى مما أعطاك الله يا سعادة الباشا !... زادك الله من نعمائه ! » .

وكأنما أغراه صوتى الأنثوى الخافت ، فاعتدل جهده جالسا ، وسدّد إلى وجهى مصباحه الكهربىّ الصغير ، وأضاءه فجأة . فما رأى سَخْنتى الشوهاء التى أكل عليها الدهر وشرب ، حتى تراجع متقززا يغمغم :

« أعوذ بالله ! اغربى يا بومةَ النحس ! أتطمعين بعد فى هذه الدنيا ؟ » .

فتراجعت عمياء من النور القوى المباغت ، وارتطم عُكازى بالطَّوار ، وكدت أهوى لولا أن أسندنى السائق الذى عاد حينئذ يحتضن ما اشتراه لسيده من زجاجات الشراب . فضجَّ من فى السيارة بضحك أهوج صاخب ، يستحسنون ما نطق به سيدهم من حديث ، كأنما هو غاية خفة الدم ورقة الظرف . فقمت ألملم نفسى ،

وأحك ظهرى ، علَّ ذلك يسكن من الألم النابض فيه سيوفا مسنونة.

وحنا علىّ السائق يعاونني على النهوض ، ودسَّ قرشا فى يدى ، وهو يسر فى أذنى :

« هذا لك من عندى . دورى يا أُماه إلى الجهة الأخرى من السيارة حيث تجلس السيدة الصغيرة . إنها تريدك ! » .

ففعلتُ ما أمرنى به فى تسلل ، حتى إذا رأت الفتاة وجهى وراء زجاج السيارة فتحتْ النافذة التى بجانبها ، واختطفت ورقة مالية من حجر الوجيه دفعتها مسرعة إلىّ ، كأنما تخشى أن يأخذها ثانية . أما هو فقهقه مشروحا صدره لما صنعت ، وقد سره خروجها مما كان يغشاها من انقباض وانزواء .

وهمست الفتاة إلىّ بكلماتها :

« أختى الطفلة داخل الملهى ... أنقذيها بربك ! » .

وشعرت بأناملها مثلجة ، وأنا أتناول منها النقود ، فهفا قلبى إليها شفقة ، وقلت بحرارة صادقة :

« من عينىّ هذه وتلك ! قسما لأنقذنها بأى طريقة ! » .

فلما مال « البك » نحوها يجذبها إليه ، ويتحسس ذراعها ، وقد تشجع بحدوه أمل ، تقهقرتُ أنا مستخفية فى الظلام ، على حين وثبت السيارة بحملها تطوى الأرض طيا ...

* * *

ذهبت من فورى إلى باب خلفىّ للملهى نعرفه جميعا ، وتسللت داخلة. لذت بالظلال أتجنب الردهات المنيرة ، وأسترق السمع ملتصقة بالحوائط والجدران ، حتى وصلت إلى حجرة الراقصات ، وأتانى صوتهنّ منشدات من المسرح، فعلمت أنهنّ يقمن باستعراض لمجموعتهنّ.

وكانت الحجرة مضاءة لا أثر لنظام فيها - ثياب مبعثرة على كل شاكلة ولون ، وعلب للمساحيق والأصباغ منثورة على الأرض فى الأركان وعلى المقاعد . وعلى كومة من ملابس التمثيل وجدتها - الطفلة - نائمة . ابنة خمس سنوات أو ست . الطهارة فى بُؤْرَة !

لم أُضع دقيقة . اختطفتها اختطافا ، وأنا أحمد الله على صغر سنها وخفة وزنها ، ورحت أعرج بها وأحجل تعوقنى قدمى المشلولة ، حتى وصلت إلى الباب الخارجىّ والتصفيق يدوى عاليا فى أرجاء المكان مؤذنا بانتهاء العرض . فانزويت مسرعة بالملكِ المستكين فى أحضانى وراء مصراع الباب ، وجموع الراقصات صاخبات ضاحكات يهرولن أمامنا إلى حجرتهنّ .

فاستيقظت الطفلة تفرك عينيها وتديرهما حولها تتراقص شفتها السفلى الناتئة منذرة بخطر انفجارها باكية مستوحشة ، فلم أنتظر حتى يفتضح الأمر ، وهويت بكفى على فمها أسدّه ، وتابعت

الهرب . فلما تركنا الملهى وراءنا ، أنزلتها من فوق كتفى ، وربت شعرها أُونسها وأُصلح من شأنها ، فسألتنى بصوت باك :

« من أنت ؟ وأين « أبلا اعتدال » أختى ؟ » .

فواريت سخنى بخمارى ، لكى لا ترعبها ، وعالجت خشونة صوتى ، قبل أن أجيبها وأنا أبتسم متودّدة فى ظلام الشارع :

« لا تخشىْ شيئا يا حبيبتى . أنا صديقة أختك أرسلتنى لأعيدك إلى بيت أبيك . أتستطيعين إرشادى إليه يا ابنتى حتى آخذك إليه ؟ » .

فصفقت بيديها الصغيرتين ، وتهللت قائلة :

« أحقا نعود ؟ وافرحتاه ! غدًا حفلة « سبوع » أخى الجديد ! لقد انتظرت ذلك اليوم ، وتمنيت حلوله ، كى أحمل شمعة مضاءة ، وأغنى مع الأطفال وآكل بندقا ولوزا . ولكن « أبلا اعتدال » حملتنى فجر أمس ، وخرجت بى والأهل نيام وقالت لى إننا سنزور قبر أمنا ! » .

فاستمعت إليها وحلقى يتقلص ، وعيناى تَنْدَيان .

وكثرت عليها سؤالى عن بيت أبيها ، فقالت بحماسة :

« طبعا أعرفه ... إذا أنت أخذتنى حتى دكان «عم محمد الجنايني» البدّال فى حارة « البركة الناصرية ! » .

صَحِبْتُها إلى هناك ، وما وجدتْ الطفلة نفسها فى الحارة الحبيبة المألوفة لديها ، حتى خلصت يدها عنوة من يدى ، وركضت

تسابق الريح . فوقفتُ ساكنة أنظر إلى خيالها الصغير يغيب داخل منزل عتيق ، وقلت للهواء عله يبلغها قولى يوما :

« اركضى ... اركضى وُسْعَك يا ابنتى ! اهربى ... فترى إلى بيت أبيك ! لوذى بأحضانه ، وادفنى وجهك على ركبتيه ، واحتمى بذراعيه من العالم الصاخب . وإذا لطمتك زوجته على خدّك الأيمن فأديرى لها خدّك الأيسر باسمة راضية ـ أكرم لك هذا يا صغيرتى ! إى والله أكرم لك يا بنيتى ! » .

* * *

وألهتنى الدنيا أياما معدودات ، رجعت بعدها إلى مكانى المختار بجوار باب ملهى « المدام » . وما كدت أُلقى عكازى إلى جانبى ، وأُسند جسدى المتعب إلى الطَّوار تحت النافذة السفلى العتيدة ، حتى طرق سمعى رنين كأس ، وضحكة ماجنة مخمورة ، خيِّل إلىّ أنى أعرف صاحبتها ... فتحاملت جهدى حتى حافة النافذة ، وأطللت منها ... ليواجهنى ظهر عارٍ ينحسر عنه ثوب حريرىّ فى لون جهنم ، ظَهْر امرأة شابة تجالس زمرة من الرجال ، يتكالبون على خِطبة ودّها ، وهى تسوسهم بخبرة ومهارة وسعة حيلة . فجمدت مكانى منتظرة ، حتى إذا التفتتْ على غير قصد وراءها ضاحكة ، تراجعتُ جاحظة العينين ، لاهثة . فلم تكن إلا « أبلا اعتدال ! » .

العفو الكبير

لو أنني سمعت هذه القصة من غير صاحبتها، لنسبتها إلى خيال خِصْب طلق يرتع على هواه، ينسج ويصوّر.

كنت - أنا وجمع من رفيقاتي - في رحلة مدرسية إلى الصعيد الأعلى. فحططنا رحالنا لنبيت ليلتنا... وكنا على قارب بخاري... عند إحدى القرى المجهولة المتناثرة بين «أدفو» و «أسوان». وقفز الملاحون طوالا خفافا إلى الشاطئ يثبتون الأوتاد ليشدوا إليها حبال قاربنا. وجاءتنا أغنياتهم يردّدونها من أعماقهم، فتنتفض كلماتها حية نابضة. وهدّدتنا الأمواج لحظات قبل أن نستقر في مكاننا المختار.

وليالي الصعيد شاعرية لها سحر يهز الوجدان، ويمس شغاف الروح. فما بالك بحفنة من المراهقات تناوشها آمال، وتشاغلها أخيلة وردية من رؤى وأحلام؟.

تسمرنا مكاننا على سطح القارب، بثغور مفترّة، ننظر إلى الأفق البعيد، وعيوننا ساهمة، حالمة، وآذاننا تلتقط كل نغم،

وتكبّ على كل لفظ تعيه وتحفظه . واصطبغت السماء أمامنا بلون بنفسجى تشع منه حمرة دافئة ، والشمس تحنى هامتها منحدرة نحو النهر المقدس ، كأنما هى عروس النيل فى صلاة أخيرة قبل أن ترتمى فى أحضانه تغوص فيها . وهبّت نسمة باردة بعثرت شعورنا ، فما أحسسنا وما اهتممنا ، ولكن يبدو أن مُدَرِّسَتَنَا الأمريكية العجوز المشرفة على الرحلة قد قاست منها ، فقد صفقت بيديها فى حدّة وإصرار وهى ترتجف ، وصاحت بنا تشدّنا إلى الأرض من أفق تحليقنا :

— « هيّا ... هيّا يابنات إلى الداخل » .

فلما علت همهمتنا نحتجّ ونبتهل ، قالت :

— « إذن ألبسن السترات الصوفية ، فقد يطول بكنّ الوقوف . فنحن فى انتظار ضيف للعشاء » .

فنظرنا بعضنا إلى بعض لحظات ، انقضضنا بعدها على « مس جونز » ، نوسعها ضما وتقبيلا فى فرح وغبطة بالغين ، ونحن نتصايح :

— « أحقا تقولين ؟ أننتظر ضيفا للعشاء ؟ هذا جميل ... جميل جدا » .

فخلصت المسكينة نفسها منا ، وربتت بوقار شعرها القطنى ،

وهى تقول :

ـ « صه ... صه يابنات . ألا شيء من الرزانة ؟ أنتن شابات كبيرات الآن فى الرابعة عشرة والخامسة عشرة من العمر ، وينبغى أن تلزمن العقل » .

وكنا نعرف بالتجربة أن « مس جونز » إذا ذكرت «العقل» «والرزانة» فهناك رجال فى الجو ! لذا نظرنا بعضنا إلى بعض مرة ثانية نتشاور فى تعجب صامت : أيمكن أن يكون هذا ؟ رجل ... رجال ؟ نُرى ، من ؟ لقد زارنا الكثيرون فى المدرسة ليلقوا إلينا بعظاتهم وتجاربهم : رجال علم ، وفكر ، وأدب ... رسامون ، وموسيقيون ، ورجال دين .. ولكن هنا .. على القارب البخارى .. والوقت أصيل ... والجو مسحون بالسحر والخيال ... هذا جميل ، جميل جدا !

تسللت أناملنا دون وعْى تتخلل خصلات شعورنا تمشطها فى تلك الحركة الفطرية ، وأعملنا أسناننا فى شفاهنا ندغدغها لتندفع الدماء تخضبها بلونها الزاهى ، ومنا من شدّت حزامها تضيقه ليبدو خصرها أكثر نحافة ، ومنا من مست أهدابها بأنملة بللتها بلعابها حتى تتلاصق وتبدو كثيفة ندية .

وأخرجَنا من أحلامنا نهيق حمار منكر ، فهرولنا نتهافت على

الدرابزين نميل عليه نتطاول بأعناقنا ، ونشرئب بأنظارنا اللهفى نحو الطريق الضيق الأعفر المنحدر إلى الشاطئ ، لنرى امرأة محجبة من قمة رأسها إلى أخمص قدمها ، مقبلة نحونا ، ممتطية الحمار ، تحف بها شرذمة من الأطفال ، شديدو السمرة ، ناصعو بياض الأسنان . ولا أحد غير ذلك .

فانخذلت أذرعتنا لاحياة فيها إلى جنوبنا من شدّة خيبة الأمل ، ونكسنا رؤوسنا ونحن نعود أدراجنا إلى الداخل ، وقد عولنا على الاعتذار بصداع أو نحوه لنهرب إلى حجراتنا فى أسفل القارب ، وننجو من مجلس ممل سقيم ، كل قوامه « مس جونز » العجوز وضيفتها التى لاتقل عنها عمرًا بحال ... إن لم تزد .

وَلَكَمْ أدهشتنا مُدَرِّسَتُنَا الأمريكية الطيبة وهى تهرول مضطربة ، تقع وتقوم ، تستقبل بترحاب بالغ واحترام شديد الضيفة التى ترجَّلتْ عن حمارها بخفة ورشاقة ، ولم تعقها ملابسها التى تصل إلى كعبيها . وأدخلتها « مس جونز » إلى سطح القارب ، حيث وقفنا نحن إلى جانب ننتظر ما يكون ، وأجلستها فى مكان الصدارة منه . وللتوّ أحاطت بها تجلس عند قدميها شرذمة الأطفال التى تصحبها ، والتى لا يكف أفرادها عن الابتسام ، فتبدو أسنانهم ناصعة البياض وسط سواد بشرتهم .

وأشارت إلينا « مس جونز » أن نقترب . فراحت كل واحدة منا تخز أختها تدفعها بمرفقها لتتقدم قبلها . فرمقتنا « مس جونز » بعيون غاضبة ، وقد عقدت ما بين حاجبيها ، وزمت شفتيها فى خط رفيع ، مهددة :

« هيَّا يا بنات . أقبلن للسلام على «ست تفيدة» .

فوضعنا مكرهات أكفنا فى الكف الصغيرة المبسوطة لنا ، ولم نكلف أنفسنا مشقة هزّها ، أو حتى الضغط عليها ضغطا خفيفا . ثم تبادلنا النظرات نتشاور فى أمر فرارنا ، والنجاة بجلودنا مما يراد بنا .

فأسرعت « مس جونز » تقول ، وكأنما شعرت بما يدور فى أخلادنا :

« لتتخذ كل واحدة منكن مجلسا مواجها لـ « ست تفيدة » ، والقوم هنا يدعونها « ملاك الصعيد » ولتفتح أذنيها جيدا وتعى ما ستسرده علينا الآن متفضّلة من تاريخ حياتها المجيد .

فأطعنا نغمغم وندمدم ، ونحن نتنهد بحرقة ، وندير عيوننا فى صمت واسترحام نحو السماء ، شهيدات مسوقات لا حول لهنّ ولا قوة . لم يكن يبدو هناك ما يبشر بأمسية شائقة . . . ولم نكن بعواطفنا المشبوبة وخيالنا المجنون نقبل أقل من « شائقة » وصفا

لليلة صافية كليلتنا تلك . ولكن عندما ارتفعت يدا الضيفة إلى رأسها فى حركة رشيقة متماوجة لتحل نقابها ابتسمنا آملات ، فلن نستمع لها وبيننا وبينها هذا الستار الأسود الثقيل ، وسنستطيع على الأقل أن نتأمل قسماتها ، ونرى أسنانها ، ونعرف هل تواظب على غسلها مرتين فى اليوم كما تأمرنا « مس جونز » أو لا ؟ ثم هناك شفتاها ... أيضا . وكنا نحب دائما أن نقارن بين أى شفاه نراها وبين شفاه أحب الممثلات إلينا . وهذا فى ذاته تسلية كبرى تلهينا عن متابعة الحديث إن كان مملا . وهكذا تبادلنا البسمات ، وحبسنا أنفاسنا نترقب سقوط النقاب .

وقد سقط . وسقطت معه قلوبنا تتمرغ رعبا وفزعا بين أقدامنا ؛ فمنا من صرخت ، ومنا من لطمت فمها بكفها تحبس صيحة نكراء ، ومنا من دفنت وجهها بين راحتيها تنشج بعنف ، ومنا من تسمَّرت مكانها تحملق أمامها مشدوهة ، ممغطسة ، وقد سقط فكها وجحظت عيناها من شدة الرعب .

فقد كان الوجه الذى طالعنا ـ أو قل السحنة ـ سحنة شيطان : العينان بلا أهداب ضيقتان أشدّ الضيق ، والأجفان منتفخة محتقنة ، والأنف ـ أو كان هناك أنف ؟ لقد تأكَّل ولم يتبق منه ما يدل عليه سوى منخارين فاغرين كمنخرى مومياء ، وكان تحته

ـ أعنى الأنف ـ ثغرة معوجّة مفترة أبدا، تستبين منهـا أسنان سوداء كالحة ـ أغلب الظن أنها الفم . أما الذقن فلم يكن له أثر ، اللهم إلا قطعة من اللحم كقطعة عجين خبصتها يد طفلة لاهية ووضعتها كيفما اتفق فى الوجه . والأذنان ... لا ، هى أذن واحدة مكمشة وملتصقة بالرأس ... والشعر ... رماد أو عِهن . والعنق ... مغضّن معروق . والجبين ... والوجنتان ...

قفزت عيوننا مجنونة تَسيح فى أرجاء المِسْخ الذى هو وجه « ست تفيدة » ، وقد جلست فى هدوء ويداها على حجرها تضم إحداهما الأخرى فى اصطبار وحـلم . أما الأطفال السود فلم يطرف لهم جفن ، ولا حولوا عنها عيونهم وهم ينظرون إليها فى حب وتعلق شديدين ، ينادونها بتحنان بين الفينة والفينة :

«ماما ملاك ! ماما ملاك »!.

ولملمت « مس جونز » شتات نفسها ، وقالت تعالج الابتسام تخفى اضطرابها ووقع المفاجأة عليها :

« لقد سمعتُ عن « ست تفيـدة » وتضحياتهـا التى هى كالأسطورة ، وسخائها المنقطع النظير ، وأعمالها الخيرية الخالدة فى تلك القرية المتواضعة المجهولة وأنا بعدُ فى بلادى ... هناك فى ولاية « دالاس » . كنت إذا قابلتُ أحدا من بنى قومى ، رجالا

كانوا أم نساء ، وكانوا عائدين من رحلة إلى « مصر » وسألتهم عن الأهرام والنيل والآثار ، أجابونى بما يثلج صدرى ، ويثير رغبتى قوية فى زيارة تلك البلاد الساحرة ، ثم لم ينسوا أن يضيفوا فى ختام حديثهم : « ولكن أخلد من قابلنا وأروع ما سمعنا هى « ست تفيدة » وقصة حياتها ... هناك ... بعيدا ... فى أحضان الصعيد الأقصى » .

وتنحنحت « مس جونز » تختلس نظرة جانبية إلى ضيفتنا ، كأنما تدعوها إلى الكلام . فلبت هذه الدعوة دون تردّد ، وكأنما اعتادت مثل تلك الدعوات .

قالت وهى تمسح على رأس جعد لطفل استكان جنبها :

« لست صعيدية كما قد يبدو للأذهان ، بل أنا من مواليد « القاهرة » أقمت فى حىّ « الزمالك » منذ ولادتى إلى أن بلغت الثانية عشرة من عمرى ... وكنت ذات جمال باهر ... » .

وأمسكتْ لحظة ، حتى فرغنا من ضحكنا ، وفرغت « مس جونز » من زجرنا ، ثم استطردتْ وكأن لم يحدث شىء :

« ... ذات جمال باهر يخلب الألباب ، جعل سيدات الحى - وكنت أزورهنّ بصحبة أمى - يولعْنَ بالتغزل فىّ وتدليلى ويتنافسن فى خطبتى لبنيهنّ ، ويبذلن فى سبيل سبق الفوز بى

النفس والنفيس ، وأنا لم أتعد بعد تلك السنّ الخضراء . فملأنى الزهو والغرور ، حتى نأيت بجانبى عن رفيقاتى فى المدرسة ، وعزفت عن مخالطتهنّ . فلما انتقلنا إلى « المعادى » فى « فيلا » اشتراها والدى وسجلها باسمى - دون إخوتى - ثبت لدىّ ، بل تغلغل فى أعماق روحى ، الشعور بما أمتاز به من قوّة ساحقة وسلاح طاغ بتّار . فازددت تعلقا بنفسى ، وأصبحت والهة بجمالى ، مغرمة ، مدنفة .

ولم ألبث أن تركت الدراسة ، فقد خفت على عينىّ الصافيتين من الإجهاد . فلم تصدّنى أمى عن غيى ، ولا ردعنى أبى عن طيشى . كانا فى نشوة ببنوّتى ، مسحورين ، مأخوذين فصرت . ملكة البيت التى يخضع لها الجميع عن طواعية - أو مكرهين . ولكم سلقت إخوتى البنات بلهب من السخرية ، وشهّرت بهنّ فى كل مجلس ، لقلة نصيبهنّ من الملاحة ، مما يذل النفس ويدمى القلب . أمّا إخوتى الشبان فسخرتهم عبيدا لخدمتى وقضاء طلباتى . والويل كان لمن يتباطأ ... ولا أقول يرفض أو يتردّد . كنت أثير عليه أبى ، فيمسك عنه حنانه ومعونته المالية ... بل ينبذه من زمرة المرضىّ عنهم حتى يعود متذللا كسيرا .

وأقحمت نفسى فى مجتمعات وحفلات تضم من يفوقوننى عمرًا

بمراحل بعيدة . فأذهلت الجميع بنضارتى وبهاء جمالى ، وتهافت علىّ الرجال فى جنون واندفاع ، ذبابا يترامى على صحن من الشهد البرّىّ فيه هلاكه ، وقد استحال عليه الفكاك من براثن الموت اللزجة الحلوة !

هكذا كنت . لا ينجو من نعومتى وظرفى وبرائن جمالى رجل تطلع إلىّ آملا أو طامعا . فانزوت النساء حسيرات يقرضن الأنامل يدمينها غيرة منى وكمدا ، وقد خبا جمالهنّ إلى جانبى ، وانطفأ بريق عيونهنّ . فألهب هذا دمائى ، ووخز شياطينى ، وأوغر قلبى الطاغية . فلم يعد هناك مايطربنى أكثر من زوج هجر زوجه وأولاده من أجلى ، أو شاب فصم خطبته أو جافى حبيبته .

فأطلق الناس علىّ اسم « الشيطان » . وبرغم ذلك لم أتبذل مرة . فقد بخلت بنفسى على كل خلق الله دون استثناء .

كنت أنتشى بالنزال ، وأنا أعرف نتيجته سلفا . فألزم مكانى فى حفل أو مجلس لا أفارقه ، مرفوعة الرأس هادئة ، كأنما أمنّ على الكون بوجودى ، على حين يتهدّل ذيل ثوبى الفاخر الثمين حولى وعلى جوانب مقعدى فى ثنيّاتٍ سخية كالإطار حول صورة مجسمة للجمال السابى . وأتطلع من عليائى ذات اليمين وذات الشمال أختصّ هذا بنظرة ، وذاك ببسمة ، وثالثا بإيماءة ... ولا شىء غير ذلك . فتضطرب القلوب ويجن جنونها ، وتطيش العقول

وتتخبط ، وأبتسم أنا بجذل أرقب كيف يتصرّف أصحابها ، وقد حلّ عقالهم ، فنسوا من حولهم ، واندفعوا كقطيع من الأغنام تنساب متزاحمة يدعوها زامر خفيّ ...

ثم حدث أن أُغرِمَ بى شابّ إلى درجة الهوَس . وتمادى فى حبّه وتهوّر فى تشبيبه ، حتى كان يبعث إلىّ مع شروق كل شمس طاقة من نادر الورد يأتى به من موطنه « هولندا » فى طائرة تقوم به خصيصا بعد قطفه . فإذا ما انتصف النهار سمعت صوت بوق سيارة أمام بيتنا ، وما يلبث الخادم أن يأتى إلىّ حاملا صناديق من الحلوى وزجاجات العطور ، فأشير إليه بأنملة ـ وقد أتخمنى الغرور ـ لكى يهيلها على أخوات لها فى ركن تكدّست فيه أكواما . ويفنى الفتى نهاره وشطرًا كبيرا من ليله محوّما ، ولهان ، لا يستقر فى مكان ولا يهدأ له حال . وقد أخرج متهادية إلى شرفة حجرتى ثوانى يكحل برؤيتى عينيه ... وقد لا أخرج . وقد أشبك إحدى وريداته بدبوس فوق صدرى ، وأقبل دعوته للعشاء أو للنزهة ، وقد أقذف بالطاقة كلها فى وجهه ، فتتقصف الرءوس الفواحة الزكية وتتناثر ، فأسحق بقدمى وريقاتها المخمليّة ؛ وهو ينظر إلىّ متألما دهشا لا يعرف أبدا ما أغضبنى وما أرضانى .

وكان وحيدَ أمّه ، مات عنها أبوه وهو ما زال يتعثر فى مشيه ، وخلف له تجارة ناجحة . فبذلت الأرملة التى لا نصير لها من دمائها ودموعها لتحتفظ بالثروة وتنميها ليتيمها الصغير ، ثم ماتت أخت لها عروس وهى تضع . فجاءها زوجها بالوليدة مغمضة العينين قد كوّرت قبضتها تتمصصها بنهم ، واستحلفها بالغالية التى ذهبت أن تتكفل بطفلتها . ثم اختفى . قيل إنه تزوّج ، وقيل إنه هاجر . لم يتأكد لها الأمر . كل ما عرفته أنّ عبئها تضاعف ، وأنّ شبابها ولى قبل الأوان ، حتى ترعرع « مدحت » وشبت « صفاء » عن الطوق .

ونشآ معا متحابين ، يحدب الفتى على ابنة خالته ، وتتفانى تلك فى خدمته وتلبية مطالبه ، والأمّ ترقبهما بقلب راض . فلما أتم دراسته وتسلم تجارته تنفست أمّه الصعداء ، وعقدت خطبته على « صفاء » حتى تطمئن على ربيبتها فى كنف زوج محبّ محبوب . وساد الأسرة الصغيرة هناء ، ورفرفت عليها سعادة ، حتى لمحنى « مدحت » فى إحدى السهرات ، فنسى خطيبته ، وحل أنامله من حول ذراعه ، ومشى إلىّ كالسائر فى نومه ، وخلّفها بين الناس حيرى محرجة تفرك كفيها وتشرق بدموعها .

وأهمل « مدحت » تجارته ، وراح يطاردنى ويغدق علىّ الحلى والمجوهرات بغير حساب . واشترى باسمى حصانا جرى فى السباق ، وخصنى بمكسبه ؛ فلم يلبث الدائنون أن ضيقوا عليه الخناق ، فاضطر إلى شهر إفلاسه ، وحاول الانتحار مرتين أسعف فى كلتيهما . وتناهت إلىّ أخباره ، فهززت كتفىّ المرمريتين العاريتين ، وقلت للجارية التى كانت تدلكهما ساعتئذ بدهان خاص :

« ومالى أنا ؟ » .

ونسيته . قذفتُ بذكراه إلى ركن مظلم قصىّ من عقلى . ومرت أيام . وانطوى عام ، وأشرف عام جديد .

وكنت خارجة ظهرا من عند الحلاق ، بعد أن صففت شعرى الكستناتى السخىّ بطريقة مبتكرة أبرزت مفاتنى وكستنى بهالة من البهاء استعدادا لسهرة رأس السنة ، عندما اعترضت طريقى امرأة حسبتها شحاذة لهلاهيلها واعتفار سحنتها . فما توقفتُ ثوانى متقززة لأزيحها عن طريقى ، حتى قذفتْ وجهى بغتة بسائل كان فى زجاجة سَحَبَتْها بسرعة البرق من عبها . فصرختُ ـ بل قل زأرت ـ متلوية والمادّة الكاوية تشوى لحمى . فحملونى

إلى المستشفى ، وبذلوا أقصى الجهود لإنقاذ حياتى . فنجحوا ... ولكن بعد أن مسختُ شوهاء تعافها العين . » .

وصمتت « ست تفيدة » لحظة ابتلعنا فيها ريقنا بصعوبة ، ونحن نتبادل نظرات جزعة مشفقة ، ولا نجرؤ على أن نفتح شفاهنا بحرف . فاستطردت هى تلتقط الخيط من حيث تركته :

« ولقد قبضوا على المرأة ، وجاءوا بها إلىّ لأتعرف عليها ، وأنا ملقاة كالخرقة وسط ضمادات لاتستبين منها سوى عينىّ .

نظرت إلى المرأة . لم يخطئوا . كانت الجانية . لكنى ـ للعجب ـ لم أشعر نحوها بأى بغض أو حقد . ماذا دهانى ؟ ماذا حدث ؟ لست أدرى . كل ما أدريه أنى استلقيت دقائق صامتة لا يبدو علىّ شىء ظاهر ، على حين اشتدّ الصراع وعَنُفَ فى صدرى بين الشيطان الذى لبسنى جميلة فاتنة وبين روح صافية جديدة غريبة علىّ تسللت إلى دمائى كأنما طهرتها النار الكاوية . وراح صدرى يعلو ويهبط من قسوة النزال وبصرى عالق بالمرأة . وكأنما خشى شيطانى الخذلان ، فقد استصرخنى محرّضا يستفزنى بفحيحه وهمساته ، فما اهتززت

وما لبيت . وتركت الروح الجديدة تغشانى كشعاع الشمس تضىء أرجاء نفسى المظلمة العفنة . وكانت آلامى فوق طاقة البشر ، لكنى استعذبتها وتقبلتها فى صمت ، لا أئنّ ولا أتوجع .

فكأنما استبطأنى الضابط الذى صحب المتهمة ، ليأخذ أقوالى ، فقد مال علىّ يقرب أذنه من فمى :

« أتستطيعين النطق أم لا ؟ » .

فلما هززت رأسى أؤكد قدرتى ، قال :

« لقد قبضنا على هذه المرأة تحاول الزوغ من مكان الحادث . لكنا فى شك : هل هى المجرمة ؟ أُنظرى إليها جيدا . ستكون كلمتك الفاصلة .

فقمت على مرفقى أعالج الجلوس ، فأسرعتْ إلىّ ممرضتان تمنعانى . لكنى أصررت ، فاضطرّتا إلى الخضوع . فلما طفقت أحل الضمادات عن رأسى ألقتا بنفسيهما علىّ تقيِّدان ذراعى إلى جانبى فدفعتهما جانبا بقسوة ، ورحت أقاومهما بقوة خارقة . فهرولتا إلى الخارج تصرخان فى طلب نجدة . فمشيت إلى الباب وأغلقته خلفهما بمفتاحه ، ثم استدرت نحو الضابط والمرأة

ورحت أرفع الضمادات بكل ثبات وهدوء ، فلما سقط آخر شريط مخضب عن رأسى ، صرخت المرأة وانكفأت على نفسها تتمايل وتنشج . أما الضابط فقد رأيت من تقلصات وجهه ونظرة عينيه ما صرت عليه من بشاعة فابتسمتُ - لدهشتى وعجبى ... ابتسمت فى استسلام ، ومشيت إلى المرآة الموضوعة على منضدة صغيرة ، وانحنيت عليها أنعم النظر فى الحروق ... والمزق ... وبقايا منثور شعر كالتراب .

وعلا الضرب على الباب ، والدق من الممرّضات والأطباء الذين تجمعوا وراءه . لكنى أصممت أذنى عنهم ، ولما حاول الضابط فتحه لهم أشرت إليه ضارعة أن يتمهل هنيهة ، ثم قلت له :

« إليك يا سيدى قولى الذى جئتَ من أجله : لم أر هذه المرأة فى حياتى قبل اللحظة ! أطلقوا سراحها » .

وسقطتُ مغشيًّا علىّ .

ولما شفيت ، بعت الحصان ، والكلاب الخمسة النادرة ، والسيارة المبتكرة التى أهدانيها « مدحت » ، وللمت كل الحلىّ والمجوهرات وعقدتها والنقود فى منديل ، ثم ذهبت إلى بيته حيث دفعت بها بين يدى أمّه ، وأنا أقول :

... رحت أرفع الضمادات بكل ثبات وهدوء ...
فصرخت المرأة وانكفأت على نفسها تتمايل وتنشج ...

« هاك سيدتى ... هاك ما سلبت ابنك . بيعيها وابدءوا معًا حياة جديدة ... فهى أموالكم . وزوّجيه من « صفاء » فهى خير رفيق ، وأوفى أنيس ... ليباركم الله » ! .

فالتفوا حولى ... « مدحت » وأمّه و « صفاء » ... يقبلوننى ويبكون ، وأنا أستدير لأغادر الدار . وعلى عتبة الباب همست فى أذن أمّه وأنا أحتضنها :

« لقد شفيتِ روحى فشكرا ... شكرًا على ما فعلتِ بى ! » .

نعم ، فلقد كانت هى الجانية ...

صلاة النبي

صلاة الزين

« مدبولى » هذا كان شَجِيعَ الحىّ . شباب ، وفتوّة ، وتناسق فى القسمات يبهج العين ، ويسر الخاطر . جلبابه مشقوق الصدر عن وَشْم أسد شاهر سيفا ، وطاقيته الشبكية الصغيرة تميل بزهو وخيلاء عن شعره الغزير المنمق . وبينا تطل فلة فواحة لا تغيب أبدا حيث علقها فوق أذنه اليسرى ، تندس لفافة تبغ أو اثنتان وراء أذنه الأخرى . لمشيته تمايل وتثاقل كأنما ينوء بعوده أو يثقله المديح والتودّد . يخطو الخطوة شحيحا فى تمهل ، إله صغير يتعطف على الكون بتنقله ؛ بل بوجوده . لوقع حذائه ذى المسامير الحديدية على حوافيه رنة لها فعل السحر فى القلوب قبل الأسماع .

أما الصبايا الملاح فكنّ يعشقنه ، وأما أمهاتهن البيض ذوات البراقع الهفهافة والعصائب الزاهية المعوجة على حاجب ، والملاءات اللاتى زممنها بخبث حول الخصور والأرداف ، فكن يتملقنه ، يتهافتن عليه ، تحاول كل واحدة أن تظفر به لبنتها بعلا .

وأما الرجال فقد عقدن له لواء الزعامة منذ كان فى الخامسة عشرة من عمره ، وليس منهم من لم يذق لطمة من كفه الضخمة ، أدارت الدنيا رأسا على عقب أمام ناظريه ، كأنما رفسه حصان .

وكانت « قهوة اللطافة » تقع على ناصية الحارة ، وقد كدس فيها صاحبها ـ « المعلم أبو العلا » الكراسى الخيزرانية ، والأرائك الخشبية المبرقشة ، والمناضد الصغيرة الرخامية السطح ، وجاء فيها بأباريق ضخمة نحاسية ذات جلاجل ، وأكواب مزخرفة بورود خضر وحمر وصفر ، وعلق على وجهتها مذياعا يجلجل فى الحى .

فما يهل « مدبولى » بقامته المديدة وكيانه الفحل يسدّ باب « القهوة » ، ويدور بعينىْ صقرٍ فى أرجائها ، وهو يدق بهراوته الأرض بين لحظة وأخرى دقات تصرخ « نحن هنا » ، وعلى وجهه الوسيم القاسى تتلاعب بسمة متحدّية ـ حتى يهرول « المعلم أبو العلا » وصبيانه يفركون الأكف ، وينحنون ويفسحون الطريق مرحبين به وبعصبة المتعطلين التى تحف به . فيسير « مدبولى » مترنحا تسكره عظمة ، إلى أريكة خصصت له فى صدر المكان ، عليها وسادة فستقية ، بسطت أمامها على الأرض فروة كبيرة ممشطة ومخضبة بالحناء .

ويصرع الشجيع نهاره ، يكرع مقادير من القرفة والشاى ،

أو الخروب وشراب الليمون والشعير ملء قِدْر ، وهو يلقم فاه قطع « البسبوسة » و « الهريسة » يأتيه بها متبسّما متقرّبا زُلفى[١] - كأنما يسأل إحسانا - « عم حنفى » بعد أن ينتقيها تنزّ بالسمن والشراب ، من فوق صينيته التى يحملها على رأسه ويدور يسترزق من بيعها . ويقف بائع الأطعمة الجوّال بعربته عند مروره أمام القهوة من تلقاء نفسه ، ويدفع الضريبة اليومية طبقين مترعين بـ « الكشرى » و « المكرونة » يلحقهما « مدبولى » بـ « البسبوسة » . ثم يلتفت وهو بعد يمضغ ويتشدّق إلى طبق « المهلبية » الضخم يناوله إياه بائعها . أمّا أرغفة الخبز المقمَّر الساخن اللذيذ فلا تسل عن عددها ، لأنّ « الحاج عبده » الفران يرسلها فى سلة مغطاة بفوطة . ويزعق « مدبولى » - وأشداقه محشوّة بالطعام تكاد تتمزق - يسبّ ويلعن رسول « المعلم ضبعة » الجزار ، ويقذف فى وجهه بفخذ اللحم النيئة التى أتاه بها ، فيلتقطها المسكين وهو يرتجف ، ويتقهقر يغيب ساعة وبعض الساعة ، ثم يعود بها ثانية مطهوّة ومهيأة بالتوابل والبهار ، وفوقها اعتذار « المعلم ضبعة » واستسماحه . فيعمل فيها « مدبولى » أسنانه وأصابعه نهشا وتمزيعا ، حتى يمتلئ ؛ فيلقى ببقيتها إلى أتباعه ، ويتكئ بمرفقه إلى ظهر الأريكة ، وهو يتجشأ بصوت كالرعد . فيسرع

الحاضرون يهتفون :

« صحة وعافية على بدنك » ! .

فيرفع يده متثاقلا يربت صدره ، ويلوّح بذراعه ناحية المذياع . فإذا كان مغلقا أداره « المعلم أبو العلا » ؛ وإذا كانت النغمات تنطلق منه صاخبة مرحة ، أغلقه على الفور .

ويتوقف أهل الحيّ فُرَادَى وجماعات فى طريقهم إلى أعمالهم يحيُّون شَجِيعَهم ، ويدسون فى يده « المعلوم » وويل لمن يتأخر أو يتهرّب أو يحاول زوغانا من الدفع . فهناك حادثة المطربة بنت الحى التى أحيت مرة زفافا بلغ « مدبولى » أنها جمعت فيه قطعا فضية وذهبية كثيرة مما ألقته أمّ العروس على ابنتها ساعة الجلوة . فأرسل إليها من اعترض طريقها يوما يسألها وهو يشير إلى العود الذى تحمله لتضرب عليه ، وهى تغنى :

« أأكسره ، أم أكسر دماغك ! ؟ . . »

فهزت كتفيها ومضت عنه ، ليعثروا عليها الليلة التالية فى أحد الأزقة البعيدة المظلمة جثة مهشمة الرأس . واستنفدت الجريمة بحوث الشرطة ، واستنزفت جهود رجال النيابة ، ثم قيدت ضد مجهول ، وأهل الحى صم ، بكم ، عمى . حتى أهلها كبتوا لوعتهم فى قلوبهم ، كيلا تكون هناك من بينهم ضحيتان !

ومع ذلك كان معبود النساء . يهوين بطشه وجبروته . ويذبن

صبابة فى نظراته الفاجرة إلى نحورهنّ وصدورهنّ ، وتطرب منهنّ الآذان وتنتعش القلوب ، أثناء مرورهنّ أمام القهوة ساعة الأصيل . وهو جالس فوق أريكة الشَّرَف على الطَّوار . يبسط كفيه يصفق طويلا ، ويشيعهنّ بتحيته المألوفة :

« صلاة الزين . صلاة الزين ! »

وقد تضطرب إحداهنّ وتتعثر فى ملاءتها . فيصيح وهو يهبّ لمساعدتها :

« اسم الله ! » .

ويقبض على ذراع بضة ، أو يحتك بفخذ ، غضة حتى تلملم المرأة نفسها ؛ فيقول لها وعينه فى عينها :

« أموت أنا ! » .

ويشيعها بصفقة أخرى طويلة من راحتيه الكبيرتين :

« صلاة الزين ، صلاة الزين ! » .

وكان يعيش وحيدا ، تتقاتل النسوة على خدمته ، وغسل ثيابه ، وملء القلتين وتبخيرهما ، وتنظيف حجرته ، وتسوية فراشه . هذا على الرغم من زوجاته . إى والله ـ زوجاته : أربع من أجمل بنات الحى ، يتامى كلهنّ ، وليس فى الوجود من يدس أنفه فى أحوالهنّ ومعيشتهنّ . فألحقهنّ « مدبولى » « ببيت » ـ وقيل :

باعهنّ ـ يعملن ويُعدْن بالكسب إليه . وقد تجرأ شيخ وقور ذات مرة ، وسأل « مدبولى » متودّدا :

« لِم يخرجن ويتكسبن يا « مدبولى » يا عترة الحىّ ؟ وخيرك كثير ؟ » .

فضرب المنضدة التى كانا يجلسان إليها ضربة كادت تقصمها نصفين ، وصاح محتدا :

« كيفى ... مزاجى !.. صنف النسا صنف لئيم ! اكسر أنفه وأرهق بدنه بالعمل ، يأمن الرجل منا شره . آه ـ اسألونى أنا ! » .

وكانت تزوره زوجاته ، لكل منهنّ ليلة فى الأسبوع ، فتأتى متلفعة بعتمة المغرب منهوكة القوى ، مهيضة الجناح ، وإن تأنقت وتكحلت وتعطرت . فتمشى جنب الحوائط فى الحارة منكسة الرأس حتى تصل إلى دار « قانيها » . فتبيت ليلتها ، وتعطى زوجها ما حملت من نقود وفاكهة ، أو ما جلبت من هدايا : جلباب حريرى ، كوفية ، منديل . وتنسل عائدة إلى « عملها » مع أول خيوط الفجر ، لا تجالس جارة ولا تحيى جارا من قريب أو بعيد .

وكانت الثورة تضطرم فى صدور الإماء وهنّ مستكينات ، كل لطمة على خد إحداهنّ كعود من الحطب يخز النار المتأججة يزيدها اضطراما . تكشف من ذاقت عصا « مدبولى » فى ليلتها

عن كتفيها وفخذيها وهى تشرق بالنحيب ، فتواسيها الأخريات وتمتزج دموعهنّ : واحدة مشفقة لذكرى ما حل بها نفسها يوما ، وأخرى ناقمة على دنياها تبكى ضيقا وغيظا ، وثالثة متشفية - أليست ضرتها ؟ - تعتصر قطرات من الدمع مجاملة .

ثم هربت « توحيدة » . وحبست زميلاتها أنفاسهنّ يترقبن ما يحلّ بها فى فضول وحسد ، شأن من يضمر أن يحذو حذوها . وطالما نصحن لها بالتعقل والاصطبار على القسمة والنصيب . ولم تكن النصيحة دائما خالصة لوجه الله ، وإنما ناوشهنّ خوف أن تنجح فى الإفلات وتنجو بنفسها . وربما لا يسعدهنّ الحظ مثلها ، فيشربن دونها العلقم إلى آخر قطرة فى الكأس .

وقد صدق حدس البائسات ، فكان الذنب الذى أنزله بهنّ « مدبولى » هو السجن ، والرقابة الشديدة ، و « العمل » المضنى يستنزف دماءهنّ فى ذلك « البيت » - حيث ألحقهنّ - على حين يتسلم هو المرتب من « ذوى الشأن » . ثم جاء من همس فى أذن كبيرتهنّ ، وابتسامة كريهة ذات مغزى تُعوِّج فمه إلى جانب :

« توحيدة ... تعيشين أنت ! » .

ومرت ساقية الأيام تجرّرهنّ فى عجلتها ، دوابّ يأخذ برءوسها

الدوار ، فلا تملك إلا الاندفاع فى المدار .

ثم ماتت إحداهنّ - « بدرية » . ذوت ، وذبلت ، وانهصر عودها . وكان القوم يتحسرون عليها ، ولا يملكون إلا هز رؤوسهم خلفها أسفا ، وهم يرونها فى كل زيارة لها إلى الحى وقد سَرَّحها مستأجروها تقززا - تذوب على مر الأيام وتسعل سعالا خشنا لا يرحم ، يهزها هزا . فترتكن إلى جدار تلتقط أنفاسها وتبصق فى منديل تطويه مسرعة وتدسه فى عبها ، وهى تلتفت حولها . ثم تستأنف سيرها تلتقط « عملا » هنا أو هناك .

ونفض « مدبولى » يديه بعد دفنها ، واستعد لِخِطْبة وزواج جديد . فنشطت الأمهات البيض ذوات الملاءات الهفهافة . لكن لم يعرهنّ الرجل التفاتا . البنات نضرات كالورود ملفوفات العود ، ناعمات الشعر ، قد ذهبن إلى المدرسة و « المعلمة » ، وأجدن تفصيل الثياب وشغل الإبرة وفك الخط . ماذا يرضى « مدبولى » أكثر من ذلك ؟ ليست زوجاته الحاليات - ولا الأربع اللاتى سبقنهنّ - بأجمل من « فردوس » ، و « سوسن » ، و « ثريا » . من تمر على باله ؟ ماذا يدور بخاطره ؟

والغريب أن الأمهات لم يتشاءمن به ، ولا أجفلن من تاريخه الحافل . بل لم يخشين على فتياتهنّ من الحياة فى كنفه . ماله ؟

أسم النبي حارسه ... رجل تمام ـ طول وعرض وفتوة ! رجل ملء ثيابه ، يسيل الخير بين يديه ، ويلعب بالنقود لعبا ! والرجل عيبه جيبه !

كانت كل واحدة تطمع بل تشعر عن إيمان أن بنتها هى المحظوظة التى ستكون أسعد حالا من غيرها معه ، لأن الأم وأقاربها سيضطرونه أو يتحايلون عليه بطريقة ما ـ لن يعدموها ساعتئذ ـ كى يعيش وعروسه بينهم فيتحوّل كل الخير من هبات وهدايا إلى بيتهم . خطة سهلة ساذجة . وهكذا شهدت الأسطح مؤتمرات الأمهات والخالات والعمات يقلبن الأمر على شتى وجوهه ، بين أكل الخس وتسالى اللب ... لكنه ـ « مدبولى » ـ لم يكن من البله بحيث يقع فى الشرك . هو زاهد إلا فى « المقطوعات من شجرة » ولن يحيد عن خطته . لا أُمّ تشاكسه ، ولا أب يضايقه ، ولا عم يناقشه الحساب .

بيد أنه حاد . وطمس الحب ـ لأول مرة فى حياته الزاخرة بالنساء ـ على ناظريه ، ورشق سهامه فى طود حرصه لينساب حذره من الثغرات قطرة قطرة .

أحبّ « زينات » ـ طفلة دون سن الزواج ، كالرمح اعتدال قامة كأنما صبت فى قالب رائع . ترفل لاهية فى أربعة عشر ربيعا

من صحة متفجرة : وجه صبيح نضر ، وأعطاف متناسقة تتماوج فى مشيها ريّانة ، نَشْوَى . وكانت تعيش وجدّتها العجوز غاسلة الثياب فى جحر مظلم فى أسفل منزل يتـكئ إعياء على جيرانه ، يكاد المرء يسمع لُهاثه وتقصّف ضلوعه وهو يتماسك ببسالة وجلد ، كيلا يهوى جثة هامدة .

ولقـد رأى « مدبولى » « زوبة » أول مارآها تتضارب فى الحارة مع يَفَع غازلهـا فى الطريق بوقاحة ، يضيق عليها الخناق ، حتى أوقع عن كفها صحن « المخلل » الذى كانت تحمله للغداء . فوقف « مدبولى » يرقب النَّمِرة الفتيَّة بإعجاب ودهشة ، حتى إذا انقضَّت تضرب الأرض برأس الغلام ، وتبرك على ظهره ، تكاد تزهق روحه ، قبض على ذراعيها من الخلف ، ورفعها وهى تسب وتركل الهواء بعيدا عن الفتى الذى أطلق ساقيه للريح ، دامى الأنف ، متورّم الشفتين ، تحيط بعينه اليسرى هالة بنفسجية . أما هى فـلم يصبها سوى انزلاق منديلها عن شعرها السخىّ ، فانسكب فى ثورة عارمة متدفقا على كتفيها .

وأطلقها « مدبولى » ، وتراجع خطوتين يتأملهـا ، كأنه فى سوق يعاين مهرة أصيلة . فاستدارت « زوبة » إليـه ويداها على خاصرتيها :

« مالك أنت ومالنا ؟ لِمَ تنحشر فيما لا يعنيك ؟ »

فأجابها وهو يعب جمالها الغاضب عبًّا :

« أكنت تنوين قتله ؟ »

— « وماذا فى ذلك ؟ لن يضار أحد إن أنا أنقصت عدد المائعين واحدا ! » .

فابتسم فى حلم ، وعيناه نَقَّابتان تلمَّان بكل شىء فيها :

« هكذا ؟ » .

— « وأكثر ! وسيدى « أبو العلا » لو تمكنت من عنقه لما أفلته سليما ! » .

« هكذا ؟ » .

فكأنما أطمعتها سماحته أو أثارها هدوؤه ، فقد تقدمت منه خطوتين تمط عنقها صائحة :

« مادمت تدخلت ومنعتنى قسرا من الأخذ بثأرى ، فسأبرد غليلى فيك ! » .

فلم يجبها ، إذ كان مشغولا يرمقها وعقله يعمل سريعا .

— « سأبرد غليلى فيك ! » .

قالتها مرة ثانية ، وانقضَّت عليه تضرب صدره بقبضتيها ، وتعض ، وتبصق على ما أمامها من جرمه الضخم . فأحاط

« مدبولى » جسدها النحيل بذراعيه وضمها بعنف شل يديها وضغط رأسها إلى كتفه . وقهقه وهو يهمس فى شعرها :

« لِمَ أمسكتِ عن ضربى ؟ »

ثم أضاف غمازا : « أو ربما لا أهون عليك » .

فتملصت بين ذراعيه تحاول الفكاك وهى تسبه وتلعنه . فرفعها وحملها ، عصفورة لاحول لها ولا قوة ، وسار بها . فأشار واحد من بين الزحام الملتف حولهما إلى البيت المتداعى فى آخر الحارة ، وصاح :

« هناك ـ فى الدور الأرضى ... » .

وقابلتهما « أم بسيونى » ـ جدتها العجوز ـ مهرولة ، وقد بلغها نبأ المعركة . وتعلقت بذراعى « مدبولى » تحاول إنزال الفتاة أو أخذها منه ، لكنه زمجر ودفعها جانبا بمرفقه ، وخطا بحمله الجميل إلى الجُحْر الرطب حيث تقيم . فارتمت العجوز مستميتة على « مدبولى » تمسك بتلابيبه ، ودلفت معهما إلى الداخل . وأغلق الباب خلفهم جميعا .

وشاع النبأ فى الصباح أن « مدبولى » خطب لنفسه « زينات » حفيدة « أم بسيونى » الفقيرة ، الكسيرة ، غاسلة الثياب . فتعلقت حواجب النساء دهشة وعجبا ، ومنهن ما تراقصت فى سخرية

واستخفاف تخفى كمد صاحبتها وهى تقول للجارات :

« زينات ؟ ومن هى البنت « زينات » هذه ؟ الحافية التى يكسو الطين قدميها ، ويعلو القشف ساقيها ؟ » .

وهمست أخرى بخبث :

« والنبى يا أختى لو بحثت لوجدت أنّ الرجل انساق بقوة السحر . فالمرأة « أمّ بسيونى » هذه التى تتصنع البؤس والوهن ما هى إلا ساحرة قوية العين ، تبيت الليالى القمراء تدمدم وتغمغم وتطلق البخور فى جحر العفاريت هذا حيث تعيش ! » .

فانفجرت مولولة امرأة لم تستطع إخفاء غيرتها وحسرتها :

« عينى عليك يا بنتى يا « لوزة » ! فلّ والنبى - بيضاء كالقشدة ولكن ... ماذا نقول فى قلة النصيب ؟ » .

ثم انتفضت تؤكد بغلّ :

« لا بدّ أنّ « أمّ بسيونى » تسحر لها كى تظلّ عانسا » !

ووافقتها الأخريات ، وتبرّعن باللعنات والدعوات غير الصالحات يصببنها صبا بسخاء على العجوز وحفيدتها . وزادهنّ الصباح التالى كمدا عندما أسرّ بائع اللبن إلى « أمّ كريمة » أنّ « مدبولى » دفع مئة جنيه بالتمام والكمال مهرا لـ « زينات » ، فترنحت المرأة كأنما لكمها الرجل ، وضربت بكفها صدرها

وشهقت ـ وعيناها جاحظتان ـ شهقة كادت تفلت معها روحها ، وتركت اللبن على عتبة الباب ؛ وأصمت أذنيها عن صياح البائع فى طلب نقوده ، وهرولت إلى نافذتها التى تطلّ على الحارة ، ونادت فى صوت مضطرب حادّ :

« خالتى « نفوسة » ! « أمّ سعدية » ! عمتى « أمّ فردوس » ! حاجة « أمّ عوض » ! إلىّ ... إلىّ ... » .

فانفتحت النوافذ فى كل بيوت الجيرة على مصاريعها ، وأطلت منها النساء : واحدة بقميصها لم تكمل بعد ارتداء ثيابها ، وواحدة تمشط شعرها ، وأخرى تضم وليدها وقد ألقمته ثديا كبيرا عاريا ، ورابعة تقلب السكر ليذوب فى كوب الشاى .

وصِحْن فى صوت واحد :

« مالك يا أختى ؟ » .

فلوّحت « أمّ كريمة » بيديها يمينا وشمالا فى ولولة صامتة بليغة ، كأنما اندلقت مصائب الدنيا على رأسها .

فقالت « نفوسة » :

« سلامتك يا أختى . أمريضة أنت ؟ » .

لا جواب .

فانبرت « أمّ فردوس » تصيح :

« يا ندامتى ! « أبو كريمة » مات ؟ » .

وتبعتها « أمّ سعدية » تتساءل :

« ... « كريمة » أغمى عليها ؟ » .

ولاحقتها « أمّ عوض » :

« كفى الله الشر ! موقد النار انفجر ؟ » .

وسابقتها التى ترضع طفلها :

« أسرق اللصوص حُلاك ؟ » .

واشتركت التى تشرب الشاى :

« أبو كريمة طلقك ؟ » .

ولا حياة لمن تنادى ... « أمّ كريمة » على حالها ... اليدان تلوّحان يمينا وشمالا ، والرأس يومئ أسى ولوعة . كل ما هنالك أنها دست يدها فى عبها تبحث بين نهديها السمينين لحظة أخرجت بعدها قرشين ألقت بهما إلى الحارة ، حيث وقف بائع اللبن رافعا وجهه إليها يلوّح ، ويزعق فى طلب نقوده . وعادت إلى نواح الإشارات ... فصاحت امرأة نهش الفضول صبرها :

« طمئنينا يا أختى ... إلهى يطمئنك ! » .

فرمتهنّ « أمّ كريمة » جميعا بنظرة طويلة ، ثم مالت على حافة

النافذة إلى نصفها ، وألقت بالقنبلة .

فدقت النسوة الصدور ، وتلفت بعضهنّ إلى بعض فى كمد ذاهل ، إلا « أمّ عوض » العجوز . تمصصت شفتيها المجعدتين وتأوّدت بعنقها الأعجف تقول فى تهكم لاذع :

« ومالها « زينات » ؟ غزال عيونه ملاح ، وحسنه لاح ! » .

ثم أضافت :

« على رأى المثل : الغيرة نار ، يا أهل الدار ! » .

وأغلقت نافذتها بعنف فى الوجوه المغيظة المحدّقة .

فانهال عليها السباب من كل صوب ، وكيف أنها تمهد لحضور الزفاف حتى لا تفوتها « أكلة » ؛ وكيف أنها ساحرة تحامى عن زميلتها « أمّ بسيونى » وكيف ... وكيف . وهى خلف النافذة تضحك فى كمها . لقد كادت جاراتها ... وهذا هو المهمّ .

وجاءت « أمّ أحمد الدلالة » تحمل صرتها وأخبارا جديدة مثيرة : فالتفقن حولها يسرفن فى شراء مناديل الرأس الزاهية ، والأمشاط واللادن والروائح العطرية حتى لا تخفى عنهنّ شيئا ... هيه ... ماذا هناك من جديد ؟ ... الشبكة ؛ سوار ذهبى عيار أربعة وعشرين تنوء اليد بحمله . و « زينات » ؛ اشترت دستة من العقود الخرزية والزجاجية الرائعة ، وجعلت لكل عقد

عصابة رأس تضاهيه لونا حتى يكونا «طاقما». وماذا أيضا ؟ خمسة أزواج من الأحذية الجلدية الملونة، وعشر قطع من الحرير الهندى تخلب الألباب . وأثاث البيت ؟ ماذا جلبت بالمئة جنيه ؟ ألم يبلغكن الخبر ؟ هنيئا لها - « أم بسيونى » ! لقد تجلت لها ليلة القدر ... عندما أعطاها « مدبولى » المئة جنيه أعلن أنها هدية لها ، وأنه لا يريد منها سوى عروسه بالثوب الذى ترتديه . ولا تسلن عن الهدايا التى تتساقط على « زينات » وجدة « زينات » من « مدبولى » وأحباء « مدبولى » !.

و « سفروت » و « دقدق » و « كتكوت » - صبيان الحىّ يحومون حول بيت العروس اليوم كله ، وينقلون إلى أمهاتهم كل ما يجدّ من أمور . « مدبولى » استأجر شقة فى العمارة الجديدة التى بناها المعلم « ضبعة » الجزار ، وأثثها بمتاع فاخر . « مدبولى » أرسل إلى « زينات » خروفا وديكا روميّا وقفصا تطل منه رؤوس دجاجات لا عدد لها . « زينات » خرجت مبكرة فى صحبة من لِدَاتِها إلى « حمام السوق » . « أم بسيونى » أقامت الزينات وعلقت الرايات والثريات فى سرادق ضخم أمام جحرها . لقد عقد القران . ولكن - أليست البنت صغيرة ؟ كيف رضى المأذون ؟ هدّدوه . وهل يسكت فيعرض نفسه للمسئولية ؟ وهل

يجرؤ على التبليغ فيعرض نفسه للقتل ؟ دعونا منه ـ لقد أقبل الطبل البلدىّ ! اليوم الزفاف !

فانهارت أعصاب نساء الحىّ ، وأفلت منهنّ الزمام . فتعطرن وتكحلن ، وارتدين خير الأثواب وأبهاها . وصرّت كل واحدة ريالا فضيا على طرف منديل يدها تدفعه للراقصة ـ نقطة ـ نعم ـ سيذهبن إلى الفرح . فلئن أخفقن فى صيد الفحل لبنت من بناتهنّ فلا أقل من فرجة ، وأكلة ، وموضوع دسم لحديث يطول أياما .

وهكذا . ما أقبل المغرب ، حتى تكدّس أهل الحىّ فى السرادق الواسع الذى قسم شطرين : قسم للرجال يتأوّهون فيه مع مغن بلدى ينوح على الأرغول ، وقسم للنساء يحملقن فيه إلى أجساد الراقصات تتلوّى ، ويتهامسن ضاحكات للنكات والأغانى الفاضحة .

ثم أقبل « مدبولى » فى موكب من الشجعان والمتعطلين يسندونه ويحفون به حاملين طاقات الورد والريحان ، بعد أن طافوا به حارات الحىّ وأزقته تزفه فرقة موسيقية نحاسية ، علت بضجيجها على الغناء والأغاريد . وأمام بيت « زينات » لوّح « مدبولى » بذراعه يخرس كل صوت ، ثم صاح :

« سلام للعروس وجدّة العروس ! » .

فردّد قوله الحاضرون . فقال :

«ألف ألف مرة» ! .

فدوت الموسيقى ، ودقت الطبول ، ونفخ الزامرون تحية للعروس وجدّة العروس . ثم صاح « مدبولى » :

« سلام لشجعان حىّ المدبح ! سلام لشجعان الحسينية ! وسلام لشجعان السبتية وطالون وباب الشعرية ! » .

فأجابه الجمع :

« ألف ألف مرة ! » .

موسيقى وتصايح .

فعوج « مدبولى » لاسته الحريرية على رأسه ، ولوّح بعصاه الخيزرانية الرفيعة بزهو ، وصفق بيديه طويلا :

« صلاة الزين . صلاة الزين ! وسلام يا ولد لضيوفى كلهم — ألف ألف مرة ! وأنا وأنت » .

وللحال أفسح المحتشدون له مكانا يرقص فيه على النغمات المرحة متمايلا ، يمس جبهته بطرف عصاه آنا ، ثم يرتكز عليها ويدور حولها راقصا آنا آخر . وتتابعت أغاريد النساء تحيّيه ، وتحمّس شجيع جاء مهنئا ، فعوج لاسته هو الآخر على رأسه ، واندفع داخل الحلقة يلوح بعصاه فوق الرؤوس وهو يتمايل أمام

« مدبولى » وتبعه غيره من الشجعان واحدا إثر واحد . وكان الحفل فى أوج ازدهاره وتأججه عندما انطلق فجأة صفير طويل حاد شقّ الصخب كسكين . وتبعه صفير آخر صارخ ، ثم ثالث ورابع كأنها إشارة متفق عليها بين رجال الشرطة ، لينقضّوا على الجمع المتكتل دفعة واحدة ويطبقون عليه من كل جانب .

فهاج القوم وماجوا ، واستماتوا للإفلات من الجند ، وقد سها كل امرئ عن أخيه ، فكأنما هو فى يوم الحشر لاهٍ إلا عن الفوز بنجاته ، ولكن رجال الشرطة لم يتيحوا لهم فرصة ، ولا يسروا لهم منفذا ، بل أحاطوا بهم إحاطة السوار بالمعصم ، وقد كوّنوا من أنفسهم سدّا منيعا لاسبيل إلى اختراقه ضَمَّ المحتفلين داخله : لف كل جندىّ ذراعه حول ذراع زميله ، وألقى بِثِقلِه على الجمع يضغط بكل قواه لينحصر الشجعان حيث هم لا يملكون فكاكا . وتربَّص خارج الدائرة جند آخرون يحمون بسلاحهم ظهور زملائهم المهاجمين ، ويردون من قد ينجح فى الهرب من الأشقياء المطلوبين .

فثار « مدبولى » مجنونا يرغى ويزبد ، وأعمل هراوته فى رؤوس المحيطين به بوحشية واستماتة كأنما يضرب بمعول بنيانا مرصوصا ليفتح ثغرة يفرّ منها . فعلا الصراخ ، وجرح من

جرح وصرع من صرع . ولكن ازداد الضغط من الخارج ، وضاقت الحلقة به هو ورفاقه حتى وقفوا متكاتفين ـ مشلولين لا يملكون حَرَاكا ، فلم يشعروا إلا بأيديهم تُغَلّ بالقيود الحديدية ، وقد انسلت بها بين مدار الجند ثلة من الضباط .

وفى السيارة « اللورى » التى حملت العصبة حملا كالأغنام إلى المركز ، ابتسم ضابط يجلس إلى جانب السائق وفرك كفيه استبشارا ، وهو يقول له :

« صَيْد دَسِم والله ـ ستة من كبار الفتوات مرة واحدة » .

وفى داخل السيارة بَرَكَ الشُجْعان مطرقين مخذولين . وكان « مدبولى » يعضّ بنانه عضا قاسيا يكاد يقتلعه ، يمضغه ، ويقضمه . فرمقه جاره لحظة ، ثم همس فى أذنه مواسيا :

« شدّ حيلك يا أخى . السجن للشجعان ! » .

فهز « مدبولى » رأسه آسفا كاسف البال :

« وقعت ـ والسبب غلطة صغيرة » ... وأشار بإصبعين يؤكد كلامه : « صغيرة ـ غلطة واحدة فقط فى حياتى ! » .

— « وهى ؟ » .

— « المأذون ـ تركته يعيش ! » .

رمال

جلست «أمّ حِميدة» - العربية العجوز ذات اللسان اللاسع - تجدل حبلا من ألياف النخيل ، وتترنم بأغنية مرحة من أغانى الصحراء ، وقد ربطت طرف الحبل بإصبع قدمها الكبيرة ، وراحت تفرك وتضفر بهمة ومهارة .

كان الربيع قد أقبل ولمس كل شىء فى قرية «محلة موسى» بكفه السحرية يَسِمه بطابعه : الجوّ الصحو ، والسماء الصافية ، والخضرة الشاملة ، وزقزقة العصافير المنهمكة فى عملها ، وثغاء الحملان والمعيز تتواثب حول أمّهاتها . كما سكب نضارته فى وجنات العذارى وعيونهنّ البرّاقة ، وهنّ حاملات الجرار يتمايلن بها دلالا فى صف طويل نحو الترعة . وبث فتوّته فى الشبان فتفجّروا قوّة وحيوية ، وتوثبت خطواتهم وهم يتبعون العذارى عن كثب يضاحكونهنّ ويبادلونهنّ غزلا ساذجا .

فلا عجب أن شَعَرت «أمّ حِميده» أيضا بوقع الربيع . فرفعت عينين راقصتين إلى الشباب وهم يمرّون أمامها ، وصاحت من

مكانها تحت النخلة :

« إلهى وأنت جاهى أهنئكم جميعًا عن قريب بالزواج من حبّات قلوبكم ! » .

فتضاحكت الفتيات وتضرّجت منهنّ الوجنات وترنح الفتيان سكارى بشبابهم ، وأجابوها رافعين أكفهم نحو السماء :

« إلهى يستجيب لدعائك يا خالتى « أمّ حِميده » يا أميرة ! » .

وضجّوا بضحك صاخب مرح - اشتركت فيه المرأة وهى تتمتم :

« ويلى منكم ياشياطين ! » .

وران عليها صمت ، هامت خلاله فى وادٍ من الذكريات بعيد ... سحيق ... يوم كانت هى الأخرى ريانة العود ، تتضوّع حيوية ، ويصبغ الشباب خدّيها ... يوم كانت تترع بمرح ينسكب على كل من حولها ... تطلق الضحكات رقراقة خالصة كحرير الجداول من أعماق أعماق قلبها ... وتخطر غزاله راقصة لا تكاد قدماها تلمسان الأرض ... يوم كانت تشد حول خصرها الضامر وشاحها الأحمر ، راية عُذرِيَّتها ، وتتيه بالقرط الذى يترجّح من أرنبة أنفها ... يوم كانت تملأ الدنيا شَدْوًا ... تقبّل عيناها والهتين الصحراء المترامية أمامها ... والسماء المبسوطة فوقها ...

وكتل الصخر المتناثرة - حتى الهواء كادت توسعه ضمًّا وتقبيلا من فرط نشوتها بالحياة ! ... أمّا عنزاتها الخمس فكانت تتحمل وحدها نوبات ذلك الحب الجيّاش الذى يفيض بصاحبتها ، فتنقض عليها تزهق أرواحها فى فورة حنانها ، وتخرم آذانها وتعلق فيها حلقات من صفيح كالأقراط ، وتزين أعناقها بما تجمعه فى تجوالها من خرزات زرق وحمر وخضر ، أو مزق من نسيج زاه .

وكان اسمها قبل أن تتزوج وتنجب « حِميده » : « شَماء » - تعيش وحدها فى خيمة من الخيش فى مضرب قبيلة « عرب التراجمة » عند سفح الأهرام ، وكان كل رجل فى عشيرتها - ابن السابعة وابن السبعين - يعتبر نفسه ولىّ أمر اليتيمة ذات الجمال ... فيدس فى يد ربيبته بعض مكسبه أو مأكله . ولم تكن النسوة يكرهنها ، فهى زاهدة فى رجالهن جميعا ، لا يعطيها أحدهم شيئا حتى تذهب إلى حَرِيمه - زوجة أو أمّ أو أخت - وتشكرها علانية . فخلصت سمعتها من كل شائبة ، وزَهَا اسمها فى الجيرة ، واشتهرت بـ « المليحة أمّ خنجر » إشارة إلى تمنطقها بسكين تسنّ حدّها على الصخرة التى تجلس عليها كل ليلة أمام خيمتها بعد أن تبيّت عنزاتها ... وزاد من علو قدرها بين قومها صوت رخيم ، وترنم فى انطلاق على السجية بأغنيات رقيقة كالشعر ؛ تنظمها

للمناسبة القائمة . فإذا كان هناك عرس تغنّت باسم العروس وجمالها وحسبها ونسبها ، وهى ترقص على دق الدفوف بسيف تشهره تلوّح به فوق رأسها ، أو وهى منطلقة فى سباق على ظهور الإبل مع فتيان القبيلة فى استعراض على ضوء القناديل .

ويوم جاءها « سلطان » الفتى الترجمان ... كانت جالسة تحلب عنزاتها عند الغروب ، عندما لمحته مقبلا عليها يحمل سفطا من سَعَف النخيل وضعه دون كلام ولا سلام عند قدميها . وحلّ طرف عمامته الذى يتلثم به ، ووقف ينتظر .

فرفعت « شمّاء » إليه عينى مَها تسيحان فى أرجاء وجهه ، تتأملان سمرته ، وأنفه الأشم ، وعينيه النفاذتين ، وطابع الحسن يكاد يفلق ذقنه كأنما ختم الله سبحانه عليه بإصبع بعد أن فرغ من خلقه . وانحدرت نظرتها إلى كتفيه وصدره العريض ، تنتفض عضلاته فتيّة حيّة تحت جلبابه ، وقد رق نسيجه وذهب لونه . وعند خصره تسمَّر بصرها ، وعلق بالحزام الجلدى العريض الذى يشدّه يزيده ضمورًا وتتدلى منه غدّارتان . أمّا قدماه فقد ثبتتا فى الأرض كأنهما جذعا شجرة عتيدة ، وقد انتعل خفا خشنا من وبر الإبل .

وسألها « سلطان » عندما رآها تسبل جفنيها : «أى « شمّا » ؛

أتقبلينني زوجا ؟ » .

فاندفع الدم يلهب عنقها ووجنتيها وإن لم تبدر منها بادرة . وقامت إلى السفط الذى جلبه معه تكشف عنه غطاءه ، واغترفت حفنة من الشعير الذى يملأه ، ثم تركته ينهمر ثانية من بين أناملها وهى تتأمله باسمة . وأكلت بعض حبّات من هدية التمر المجفف ، تلوكها متمهلة مستمرئة .

ثم نهضت ببطء وواجَهَتْه ممشوقة القدّ ، ناهدة الصدر ، تضم ذراعيها على كنزيه النافرين ضنينة كأنما تهيب بهما أن يهبطا شيئا ويخففا من شموخهما . وعندما لمحته يرقبها والهاً لا تفوته منها حركة ولا التفاتة ، تضطرم فى أعماق عينيه السوداوين نار وئيدة ، انكفأت على عنزاتها تهشها وتبيّتها . وغمغمت وهى تحتضن «برنية» الحليب :

« قبلتُكَ زوجاً يا سلطان ! » .

فانشق وجهه عن ابتسامة تفيض سعادة غرقت فيها قسماته كلها ؛ ومال نحوها يقبض على كتفيها براحتيه الكبيرتين فى خشونة لهفة . فخدجته غَضَبَى ، وأطاحت بلطمة راحتيه بعيداً عنها ، وهى تقول :

« مرحىٰ ! مرحىٰ ! أو ملكتنى بعد يا ابن عبد الله ؟ ... فطأطأ

« سلطان » رأسه ، وهتف يسترضيها :

« ويحى ـ أأغضبتك ؟ أى شمّا ـ السماح ! » .

ثم أردف ونظرته بعيدة : « لو علمت ما فعل الهوى بحشاى لعذرت ... سامحتِ ! » .

فتلاعبت على شفتيها ابتسامة عضتها مسرعة ، وهمست :

« سامحتك ! » .

فاختطف كفّها يمرّغ عليها وجهه ... يمسحه بها ... يتشمّمها ... يلثمها ... يريح عليها صدغه . فتركتها « شمّاء » له مصطبرة ترنو إليه بتحنان ، حتى إذا هدأ شيئا ، سحبتها منه مترفّقة ، وضمتها إلى صدرها وليدة غالية ، ودارت على عقبيها ، وسارت عنه تمشى الهُوَيْنى .

فتبعها دون أن يسألها ـ غير مهتم أن يعرف أين يذهب ـ أسيرا ، عبداً يلتذ بعبوديته .

أوغلت مجدَّة فى السير ، حتى تركت مضارب خيام قبيلتهم وراء ظهرها . وصعدت تلاً ، ثم آخر ، وآخر . وفجأة ، كأنما حل عقالها ، أو انفجر مرجل يغلى داخلها ، انطلقت تعدو وتعدو سهماً مارقا ، لا تتباطأ ولا تتعثر ، يضرب الهواء وجنتيها ويبعثر شعرها بطيش ـ بجنون ، فما توقفت وما التفتت وراءها مرة . حتى إذا لاحت الأهرام الثلاثة راسخة كأنما تنبت من جوف الأرض ،

وتتغلغل جذوعها متفرعة فى قلب الصحراء ، خرّت « شمّاء » على ركبتيها تلهث بشفاه مفترة وعيون متلألئة برّاقة ، كأنما هوت نجمتان فى حدقتيها ، تتمتم بصلاة خرساء .

فارتمى « سلطان » يركع أمامها ، ويفعل دون وعى مثلما تفعل ... ظلٌّ ظليل .

وأطل القمر بخفر متردداً من خلف قمة الهرم الأصغر . فلما استهواه منظر العاشقين ، بزغ بجرأة يقتحم السحاب ينفضه عنه ، وبسط رداءه الفضى عليهما وعلى الكون كله من أجلهما ، ثم راح يرقبهما مبتسما .

فرفع الحبيبان وجهيهما إليـه فى صمت ـ تبتل . ثم أرخت « شمّاء » عينيها ، وعضت شفتها ، وقد كشف خلوتهما ثالث . فقامت تضرب عن جلبابها ذرّات الرمل ، وتلملم شعرها تحت خمارها تعقصه عليه .

فقال « سلطان » فى ابتهال ، وهو متشبث بمكانه : « لنبق ... بربّك « شمّا » لنبق ... هنا ... بعض الوقت ! » .

وأدار ناظريه حوله بتشواق متعبدا ، وعيناه حالمتان كأنما لم يقع بصره من قبـل على صحراء ورمال ... كأنما يراهما أول مرة ...

فتأمّلته « شمّاء » لحظة ، ويداها على خاصرتيها ، ثم ألقت برأسها إلى الخلف ، وانفجرت ضاحكة تقهقه :

« قم ... قم يا مفتون ، يا غلبان ! قم ـ أم تراك نسيت الخطوة الثانية : عليك بأهلى تخطبنى منهم كبنات البادية الحرائر !... »

فزمّ الفتى ما بين حاجبيه يجهد فكره ... هى يتيمة ... فسألها متحيراً يتخيَّر ألفاظه :

« أهلك ؟ أعرف ـ أعنى ... أنا ... أنا ... » .

فقاطعته تهز رأسها متخابثة :

« إى والله يا فتى العرب ـ أهلى ! ألا تعرفهم ؟ أفراد قبيلتى ـ فهمت ؟ كبيرهم وصغيرهم ... ستخطبنى منهم علانية ! » .

وفجأة انقضّت عليه ، واختطفت عمامته عن رأسه ودسّتها بين نهديها بسرعة ، ثم أكبت ، غزالة شرودا ، تقفز نافرة ، تضم ساقيها إلى بطنها ، من فوق الحجارة والتلال والفجوات التى تعترض طريقها ، وهى تصيح به :

« الحق بى ـ تأخذها وتأخذنى ! » .

فهبّ « سلطان » ليثًا فى إثر إلفه ، وقد تقوّست كتفاه ، ولمعت عيناه ، يضرب منخراه المرهفان الهواء ، فرسًا أصيلا مضطربا . وأمسك ذيل جلبابه بين أسنانه ، وانقضّ يطوى ما يفرّقه من

مسافة عن حبيبته . ولكن « شمّاء » هبطت جوانب المنحدر كالشهاب المنطلق - إلى السفح ، حيث الخيام .

فتوقف « سلطان » يرقبها بإعزاز فخورًا ، ثم عبس عندما تذكر شرطها . فبسط ذراعيه كالطائر ، وألقى بنفسه خلفها دون تروّ . فتدحرج متكوّرًا من علٍ كدمعة كبيرة على خدّ الجبل من فرط ما أضحكه منظر العاشق .

واستقبلته ضحكات « شمّاء » وقد وقفت تنتظره ، ويداها على خاصرتيها تمايل لا تملك استمساكا .

فاستلقى « سلطان » على ظهره مكانه يرمقها ، وشفته ناتئة كطفل غاضب ، وشعره الغزير الحالك متهدّل على جبينه يضفى عليه وسامة صبيانية محبَّبة .

فاضطرب قلب الفتاة ، وعربد فى صدرها . فمدّت - تخفى هيامها - قدما صغيرة ، وعفرت قدمه بذرّات من الرمل وهى تقول مداعبة :

« قم .. هيَّا ... قم يا فارسى الجميل ! » .

فتشبث نظر « سلطان » بالقدم الوردية الحافية وخلخالها الفضىّ ذى الجلاجل .

— « قم .. هيَّا ... هيَّا الحق بى ! » .

وقبل أن تستدير لتواصل السباق ، قام « سلطان » على مرفقيه . وفى مثل لمح البصر جذبها من قدمها . فهوت على صدره تغرغر بصرخة حزينة ، يمامة تعثرت فى شبكة .

وضمها « سلطان » بوحشية ، كأنما ينوى سحق ضلوعها ليصل إلى روحها الطلقة يخضعها بين ذراعيه . وهبَّ على ركبتيه والأسيرة تتملص فى أحضانه ، يبحث بشفتيه عن شفتيها . وضغط كتفيها ... وزاد الضغط ... إلى الخلف ... وهى تقاومه ... تقاتله ... مستميتة تضرب برأسها يمينا وشمالا ، وقد أخفت شفتيها بين أسنانها .

وفجأة شهق ، وانخذلت ذراعاه ، وارتمى إلى جانب والدماء تنبثق من كتفه . فقفزت « شمّاء » عن الأرض ترمقه ، وهى تمسح خنجرها بعمامته التى أخرجتها من عبّها ، ثم ألقتها إليه ملطخة بدمائه . ودسّت خنجرها ثانية مكانه ، تربّته ... ثم سارت عن فتاها - سارت ولا يدرى صدرها ما يجيش فى قلبها ، ولا يقف جفنها على ما تختلج به عينها - سارت ... عائدة ... ممشوقة ... يطاول رأسها السماء ، دون أن تنبس بحرف .

لم يكن جرحه عميقا ولا خطيرا . ولم تلبث الدماء أن توقفت من تلقاء نفسها . فبلل « سلطان » طرف عمامته بلعابه ، ومسح

على الجرح مسحا خفيفا ، ثم قام وعيناه على الشبح الذى يبتعد عنه يلفه الظلام .

وفى خيمة شيخ القبيلة دلف « سلطان » وأقرأ المجتمعين السلام . فلما فسحوا له مكانا بينهم ودعوه لمجلسهم لم يعرهم التفاتا . وصفق الشيخ يطلب قهوة للضيف ، وهو يتمتم بكلمات الترحاب والإكبار المحفوظة . فبادره « سلطان » ـ واقفا ـ بطلبه ... يد « شمّاء » .

فابتسم الشيخ ، وربت فروة خروف جنبه ، وقال :

« تعال ... اجلس يابنىّ ... « شمّاء » بنتنا ، وأنت ابننا ، والله ـ بإذنه ـ الموفق ! » .

فلم يتحرّك « سلطان » من مكانه ، وزاد على طلبه كلمات خرجت من بين أسنانه فحيحا ، والفتى يجاهد ببسالة فورة عواطفه :

« أريدها ... الليلة ! » .

ففغر شيخ القبيلة فاه ، ونظر إلى الرجال حوله يشاورهم فى صمت ؛ ثم تنحنح وحك قفاه طويلا ، ثم سعل وبصق خلفه ، ثم تشاغل لحظة بحبّات سبحته ، ثم تساءل :

« الليلة ؟ الليلة ؟ » .

فردّد « سلطان » :

« الليلة ـ الليلة ! » .

فهز الشيخ كتفيه وراح يقهقه بعصبية ، وهو يعلم فى أعماقه أنه أمام قصة غرام مشبوب . عليه بوقاره أن يدير دفتها كربّان السفينة الحذر بين أمواج المشاعر المتلاطمة الفائرة إلى شاطئ الأمان .

فتنحنح مرة ثانية ، وسأله :

« وهل خطبتَ البنت إلى نفسها ؟ » .

فأومأ « سلطان » بالإيجاب .

— « ورضيتْ بك حليلا ؟ » .

مرة ثانية ، إيماءة مقتضبة .

فارتفع حاجبا الشيخ وكتفاه ثم هبطا كأنما يقول : « انتهينا » . وعاد يسأل :

« ومهر البنت ؟ » .

فربت « سلطان » صدره ، ثم دس يده فى عبِّه ، وأخرج ورقة ذات خمسة جنيهات ـ دفع بها إلى الشيخ ، وتراجع خطوتين يقول :

« وخيمتى وبعيرى وناقتى وحمارى ـ كلها شركة معها ، أكتب وأختم على ذلك ! » .

فتهللت أسارير الشيخ ، وهز رأسه رضا ، وصاح :

« علينا إذن بالبنت ـ نسألها ونسمع جوابها بآذاننا ، ونشهد على قبولها إيّاك ! » .

وقام شيخ القبيلة ، وقام معه وقوران آخران ممن حوله ، وساروا جميعا صوب خيمة « شمّاء » و « سلطان » يتابعهم ببصره .

فلما عادوا ، كانت « شمّاء » معهم فى جمع من النسوة يطلقن أغاريد حادّة بهيجة ويهللن ويصفقن فرِحات ؛ فرفع شيخ القبيلة ذراعيه أمامه ، فساد سكون ؛ وتعلقت العيون بشفتيه وهو يقول موجّها كلامه للعروس :

« أى « سلطان » ؛ لقد قبلتْك « شمّاء » لنفسها بعلا ولكن . » .

وحَكَّ لحيته التى تحاكى منشور ملح وفلفل :

« ولكن . . . أخشى أن يقول الناس : شبَّب « سلطان » بـ « شمّاء » حتى بنى بها ليلة خِطبتها . أىْ بُنَىَّ ... » .

وسار إليه ، ووضع يده على كتفه بحنان :

« بُنَىِّ ـ ألا تخشى معى على سمعة البنت ؟ هلا أفصحت لماذا تصرّ على ... الليلة ؟ » .

فنزع « سلطان » عن كتفه عمامته التى ضمدها بها . فتطاولت الأعناق ، وترامت الأبصار ، ترمق الجرح القانى بدهشة وفضول .

وأشار الفتى إلى كتفه وغمغم :

« أريدها لتداوى جرحا ... جروحا ! » .

والتفت إلى « شمّاء » وابتسم .

فأرخت جفنيها تبتسم ، وخدّاها يلتهبان .

فهلل الرجال وكبروا ، وغرّدت النساء ، وقد تكشف لهم الأمر ... وفى الحال جاءت النسوة بطسوت وصفائح فارغة قلبنها على حلوقها ، وقبعن أمامها متحلقات يعملن فيها كفوفهنّ طبلا مدويا رنانا ، على حين اندفعت صبايا من أتراب « شمّاء » يرقصن كظباء سكرى ، كل واحدة ممسكة بشىء تهزّه فوق رأسها : هذه بعصا أبيها ، وتلك بسيف جدّها ، وثالثة بسوط عمها ، وأخرى تلوّح بعمامة خطيبها .

وانخرطت عجائز هُتْم عجاف يردّدن أنشودة البادية القديمة قِدَم الخليقة :

بنت العرب	آيه
هذا الشرف	رايه
بالروح	تحميها
بالقلب	تفديها
وما تقول	يا بايا

وبسط «سلطان» عباءته فى صمت كجناحين هائلين ، فمشت «شمّاء» إليه ، واستكانت تحت جناحه .

وأخذها وذهب بها ـ تلك الليلة .

* * *

هزّت «أمّ حميده» رأسها فى أسى ، تتمصص شفتيها لذكريات عزيزة ، وأكبّت تتم جدل الحبل الذى بين يديها المعروقتين وهى تتنهد :

«هيه ... زمن !»

جِنْ مصوَّر

لطمته أُمّه على فخذه ، وصاحت به غضبى :

« أصعد إلى حجرتك فورا لتنام ! » .

فلما رفع إليها عينين مستديرتين تتقاتل فى أعماقهما عفرتة وسذاجة ، وهمهم بصوت صغير :

« أمى ... » .

... لوّحت فى وجهه بإصبع تهزه مهدّدة ، وقاطعته وهى تزمّ شفتيها فى خط رفيع صارم :

« كفى ! لا أريد سماع كلمة أخرى منك ! اذهب ونم ! » .

فدار على عقبيه برأس مطأطئ ، ويداه متشابكتان وراء ظهره ، وسار شحيحا ... خطوة ... خطوتين ... نحو السلم . وفجأة رفع إحدى قدميه ، وحك حذاءها بسرواله فى شدّة . فتناثر الطين المتجمد عليه فتاتا فوق السجادة العجمية الثمينة . فصرخت أمّه ملتاعة :

« السجادة ... يا ولد ! » .

ثم تمتمت ، وقد انخذلت ذراعاها إلى جانبيها فى استسلام يائس :

ـــ « ما حيلتى معك ؟ » .

ونظرت إلى السقف فى ضراعة صامتة ، شهيدة فى اصطبار .

فأكب « سوسو » جذلان ينهب الدرجات مثنى مثنى . وعندما وصل إلى أعلى السلم امتطى الدرابزين كالحصان ، وانزلق هابطا فى قوّة وسرعة خاطفة ، وهو يطلق صرخات حادّة مزعجة كزنوج الغاب عند النزال ...!

فهرولت أمّه ومعها أبوه من حجرة المكتبة إلى أسفل الدَّرَج ، وأطلت الطاهية البيضاء بوجهها المكتنز ، وقد حملت المغرفة مشرعة فى يدها كأنما تهاجم عدوّا ، ونقر « عم دسوقى » ـ البستانى العجوز ـ زجاج الباب الخارجى ، وراح يلوّح بيديه من خلفه فى اضطراب ، مستفهما عن سرّ الصرخات التى طرقت سمعه وهو يَسْقى الأزهار والورود فى الشرفة .

أمّا « هو » فقد سقط مستلقيا على ظهره ، وهبّ واقفا من فوره كالكرة من المطاط ، وأخذ يضرب فخذيه ضربات خفافا ، ويرمى الوجوه الواجمة المحدِقة به بابتسامة عريضة شقت وجهه . وقبل أن يفيق أحد من الكبار المزعجين الذين جمد الدم

... وأطلت الطاهية البيضاء بوجهها المكتئر ، وقد حملت المغرفة مشرعة فى يدها كأنها تهاجم عدوا ...

فى عروقهم ، أكب مرة ثانية يطوى درجات السلم طيا ، يلوذ بحجرته فى الطبقة العليا .

فتابعه الجميع بعيونهم مغيظين فى صمت . ماذا هناك يستطيع المرء أن يفعله حيال جنّ فى السابعة من عمره ؟ لا شىء - طبعا . تمصصت الشفاه ريقها قنوطا ، واهتزت الرءوس فى أسف ، وعاد كل واحد حيث كان قبل غارة زنجى الغاب . . .

وكان أبواه عصر ذلك اليوم يزمعان زيارة أصدقاء لهما . فنادى الأب الطاهية وأبلغها أنه ربما امتد بهما السهر ، فهو يوصيها أن تفتح عينيها جيدا ، وتنتظر المربية الجديدة التى سيرسلها المخدّم . ثم خرج وزوجه . ولم يلبث « عم دسوقى » أيضا أن أطل برأسه فى المطبخ ، يتشمم الهواء كالقط الجائع ، قبل أن يعلن ميعاد عودته إلى كوخه .

فدسّت الطاهية بين راحتيه الخشنتين رغيفا منتفخا بما فى قلبه من أصابع محشو الكرنب وقطع اللحم . فتقهقر « عم دسوقى » بغنيمته سعيدا هانئا ، يطبق عليها بأصابع عجاف من حديد ، كجذوع شجرة هرمة مستميتة فى الأرض .

فابتسمت « أم محمد » وهى تشعر برضاء عظيم عن نفسها وحالها . كل شىء يؤكل فى البيت تحت يدها . فمعها مفتاح المخزن ،

تغرف من السمن ما تشاء، فتطهو بربعه وتعبئ الثلاثة الأرباع فى علبة، لتأخذها هـدية لبنتها العروس يوم عطلتها الأسبوعية. ولا يقتصر ما « تدبره » وتأخذه لـ « نفيسة » على السمن وحده، بل يشمل من الأرز والدقيق والبصل الشىء الكثير ـ حتى ملح الطعام له علبة خاصة تنتقص فيها كل يوم حفنة. إنها جِدُّ سعيدة بالخدمة فى هذا البيت. فالأب مشغول جدّا ـ دائما مشغول، والأم منطوية على نفسها. تهمس فى حديثها ويقفز ذعر إلى عينيها عند ما تتحدث إلى الخدم. بلهاء... صنم... هزت « أم محمد » كتفيها بقلة اكتراث وعدم احترام، عند ما خطرت سيدتها على بالها. على كل حال هى أحسن من غيرها. فهناك سيدات يدسسن أنوفهن فى كل شأن من شئون البيت والمطبخ. كم ملعقة من السمن أخذت؟ كم بصلة؟ كم كوبا من الأرز؟ أف... أعوذبالله! لوّحت « أم محمد » بيديها فى الهواء بحركة لاشعورية تطرد عنها شَبَح ربات البيوت أولئك، النابهات الناصحات المتعبات.

ثم ملأت إبريق الشاى ووضعته على موقد الغـاز ليغلى، وجلست ترقبه بسرور وتتنهد رضا. هى دائما كريمة مع خدم البيت، تدس لهم الطعام دسا فيتنافسون فى مساعدتها فى غسل الصحون وأوانى الطهو ومسح بلاط المطبخ. وهم يأتون إليها

بمشاكلهم وخلافاتهم التى تضع لها حدا كلمتها الفاصلة . لذلك هى لا تدرى لم خرجوا كلهم واحدا إثر الآخر هذا الشهر ، حتى لم يبق فى الدار سواها وسوى « عم دسوقى » البُسْتَانِىّ . الحمد لله على كل حال ـ ستحضر الليلة المربية الجديدة ، وإلا كان عليها أن تطعم الشيطان الصغير ، وتسهر بجانب فراشه حتى ينام ، وبعد ذلك . . .

هنا أخرجها « الشيطان الصغير » نفسه من تأملاتها ، وقد تسلل إلى المطبخ على أطراف قدميه الحافيتين ، وفاجأها من خلفها بصرخة نكراء دلقت كوب الشاى الذى كانت تشربه على صدرها . فهبَّت تدفّ بيديها تستجلب برداً للحرارة التى تلسعها ، وتدور حول نفسها مولولة ، والضحكات المرحة ، رنين جلاجل ، تزفها . فلما ارتمت لاهثة على مقعدها ، تبصق فى عبها ، وتستعيذ بالله من كل شيطان رجيم ، لمس « سوسو » ذراعها بكفه الصغيرة القذرة ، وغمغم ورأسه مطأطئ وشفته ناتئة :

« خالتى أم محمد ـ غضبانة أنت منى ؟ »

فتأملته المرأة برهة ، وبقايا شاى تتساقط قطرات من ذقنها ، ثم انفجرت ضاحكة :

« وما الفائدة يابنىّ ؟ تعال ـ تعال هنا ! »

ورنّت حِجْرَها السمين المريح . فتسلقه « سوسو » كما يتسلق

المرء هضبة ، ثم أسند ظهره إلى مخدة نهديها الكبيرين ، وقال وهو يدس رأسه تحت جناحها كالفرخ الخائف :

« قولى لى حكاية ! »

— « قل لى أنت أولا ـ هل شربت اللبن ؟ »

— « لا ـ لا أريد ! »

— « قالت أمك لابد من شربك اللبن ، وأكلك قطعة الكعك ، قبل النوم ! »

فاحتضنها « سوسو » بكل قواه ، حتى إذا عجزت يداه عن أن تلتقيا حول عنقها ، قبّلها فى رقبتها ذات الثنيات قبلة فرقعت ، وقال :

« خالتى أم محمد ـ أتحبيننى ؟ »

فضمته فى صمت ضمة حمّلتها الجواب . فعض « سوسو » شفته كيلا يتأوه ، وهو يشعر بضلوعه تتقصف ، وعالج ابتسامة ممتنّة عندما قالت له :

« والنبى أحبك ـ موت ! »

— « إذن اشربى أنت اللبن وكلى الكعكة ، وأعطينى أنا كوبا من الشاى الأسود الثقيل ! »

فحكت المرأة رأسها برهة ، ورمقت الكعكة الدسمة الغارقة

فى الشراب والسكر ، ثم قالت تزدرد ريقها الجارى :

« اتفقنا ! »

لكنها أردفت بسرعة ، وهى تهز أمام عينيه إحدى أصابع الموز التى نبتت فى كفها الضخمة :

« لكن - ليكن فى معلومك ... هذه المرة فقط ! من جل عيونك ! »

فلم ينتظر « سوسو » ليسمع أكثر ... اختطف فى سرعة البرق كوب الشاى من فوق المنضدة ، وهرب به إلى ركن قبل أن تغيِّر « أم محمد » فِكرها ، وراح يرشف منه الرشفة تلو الرشفة بصوت منفر كالكبار الذين راقبهم مرارا وتكرارا بعيون واعية ، وطالما هفا أن يقلدهم . ولف مزقة من جريدة كاللفافة ينفث دخانها الوهمى بين الفترة والفترة ، وهو يلوح بيديه يتحدّث إلى الجدران والمقاعد عن الأولاد ... وخلفة الأولاد ... وتعب الأولاد . ويهز رأسه بوقار - كما يفعل « عم دسوقى » - ويقص كيف أنه اضطر إلى بيع معطفه فى زمهرير الشتاء لينفق ثمنه على زوجته وهى تضع وليدها السابع ... ثم كيف ...

وجذبه صوت « أم محمد » من دنياه ، وهى تعلن بحزم :

« حان ميعاد نومك . هيا يا « سوسو ! »

وقبل أن ينتحل عـذرا يتملص به مما قُدِّر له ، أنقضت عليه ، وحملته حملا بين ذراعيها . فاستكان فى استسلام ، لـكنه قال متذللا ، وهى تهم بالخروج من المطبخ :

«خالتى أم محمد ـ مارأيك لو جلست بى على ركبتيك هنا حيث الدفء ... والجو ظريف ... فتقصى علىّ حكاية حتى أنام ـ وأعدك وعد شرف أن أنام بسرعة ـ ثم لك بعد ذلك أن تحمليني إلى فراشى ! »

ـ « وهو كذلك ! »

وعادت به « أم محمد » ثانيـة إلى المطبخ ، وجلست على مقعدها ، وراحت تمسح على شعره الغزير الناعم ، وتغمغم فى صوت راتب :

« كان ما كان ، فى سابق العصر والأوان ، لا يحلو الحديث إلا بذكر النبى عليه أفضل الصلاة والسلام : كان هناك واحد غنى ـ ولا غنى إلا الله ـ عنده بنت ... قمر ... يشوفها العاقل يجن ... ويشوفها العابد يحنّ ... ويشوفها ... »

وأغمض « سوسو » عينيه متناوما ، لـكنه راح يعدّ فى سره ألعابه وعجلاته وكراته ، حتى لايغشاه النوم حقا .

واسترسلت « أم محمد » تحكى له كيف أن ابن الإسكافى دون

غيره وقع من نفس البنت القمر موقعا حسنا ، وكيف أن أباها غضب عليها ، وسجنها فى سرداب قصره الذى بنى جدرانه وسقفه من زجاج ، حتى يستطيع أن يزيح سجادة حجرته ويطل عليها يرى ما تفعل ... ثم كيف أن الحبيب الملتاع تنكَّر فى زى جارية اشتراها الأب الغافل ووكل إليها - الحبيب المتخفى - خدمة ابنته المسجونة ... وهكذا - وفغرت « أم محمد » فاها إلى أقصاه كالبالوعة - وهكذا ... عاش الحبيبان فى الثبات ... فى ... فى الثبات والنبات ... وخلفا ... و ... وخلفا ... صبيانا ... و ...

وبطؤ صوت «أم محمد» شيئا فشيئا ، ثم انقطع وقد ثقل تنفسها وعلا شخيرها .

ففتح « سوسو » عينا حذرة تبرق ، وراح يترقب . حتى إذا ثبت لديه نومها ، انزلق بخفة الفأر من فوق حجرها ، وجاء بمقعد آخر وضعه أمامها ، ثم حمل قدميها ، قدما قدما ، برفق متمهلا ، ووضعهما عليه حتى تستريح المرأة فى استلقائها فيعمق إغفاؤها . وبعد ذلك تسلل خارجا من المطبخ ، وأغلقه خلفه بالمفتاح .

وانفلت إلى شرفة البيت الخارجية ، وجلس على السلم الرخامى وكفه على خده . ولم يطل به الانتظار ، فلم تلبث امرأة تلتفع بملاءة سوداء أن دفعت باب الحديقة ودخلت .

وكانت الشمس قد غابت وراء تلال الرمال فى تلك البقعة النائية من « المطرية » وخيمت على الكون غبشة كسته كآبة ورهبة فى الفترة القصيرة حين الغروب ، وقبل أن تطل النجوم من سمائها .

وانكمش « سوسو » على نفسه بمسكنةٍ ، وأذناه مرهفتان ، وعيناه وراء أهدابها ترقبان كل خطوة تخطوها المربية الجديدة مترددة تتلفت حولها . حتى إذا وضعت قدمها على أول السلم ، فتعثرت فى جسم لين ، أجفلت وضربت صدرها بكفها تهتف :

ـــ « بسم الله الرحمن الرحيم ـ من أنت ؟ »

فسلط « سوسو » عليها عينيه المستديرتين مشحونتين بكل سذاجة الدنيا ، وهمس وشفته تتراقص كأنما سيبكى :

ـــ « أنا . . . أنا « بيومى » الخدام ! »

فابتسمت له ـ وكانت زنجية وجهها سمح ـ ابتسامة ضاءت كل قسماتها ، وسألته مترفقة :

ـــ « ولم تجلس هنا فى البرد يا بنىّ ؟ »

ـــ « إنى خائف ـ فأنا وحدى هنا فى هذا . . . » ومط عنقه يتطاول نحوها : « فى هذا البيت . . . الكبير . . . المسكون »

فعبست المرأة وردّدت :

— «بيت مسكون ؟ اللهم احفظنا !»

وجلست إلى جانبه تحل نقابها ، و « سوسو » يتأملها ويعجب لكثرة الأحجبة والأقراط الفضية والذهبية ذات الجلاجل والخرز الأزرق التى تزين أذنيها وأنفها وعصابة رأسها ، ولكن خاتما كبيرا من النحاس الأحمر له مكان الفص منه قرص مستدير عليه نقوش عربية ورموز هو الذى تسمر عليه بصر « سوسو » . وكانت المرأة تضعه حول سبابتها . فأشار إليه « سوسو » وتساءل :

— « ما هذا يا خالتى ؟ »

فشهقت المرأة ، وسحبت يدها بسرعة بعيدا تخفيها بخمارها ، وتتمتم والذعر يملأ مشاعرها :

— « دستور يا أسيادى ! دستور يا أسيادى ! العفو ! العفو ! طفل صغير غرير ، السماح . . . السماح ! »

وبصقت خلفها بصقة وأمامها خمس بصقات ، وربتت الأرض إلى جانبها تستسمح أناسا مستخفين ، وقد ركعت على ركبتيها كأنما تصلى ، وراحت تطوح رأسها يمينا وشمالا كمن يسبحون لله فى حَلْقة ذكر . ثم تثاءبت بصوت عال تثاؤبا طويلا عويصا تقلصت معه عضلات وجهها ، وكاد شدقاها يتمزعان من عنف ما تجاهد . وفجأة هدأت ونظرت حولها تبسمل وتحوقل ، وتمسح وجهها

براحتيها ، كأنما تفيق على الفور من نوم . ومالت على «سوسو» تهمس :

« مرة ثانية يابنىّ لا تسأل عن شىء « يخصهم » ! » .

فاتسعت حدقتا « سوسو » دهشة وهو يسأل فى إصرار :

« من هم الذين لا يجب أن أسأل عن شىء « يخصهم » ؟ » .

فحظت عينا الزنجية ، وتلفتت حواليها مضطربة مترقبة ، تقول بصوت يرتجف :

« دستور يا أسيادى - دستوركم ! دستور ياسيدى « أبو لحاف » ! دستور يا ستّى « أمّ غرارة » ! دستور يا « قطامش » يا ملك الجنّ ... يا ... ! » .

وطرق سمع « سوسو » حينئذ سعال خشن متقطع أتاه من داخل البيت ؛ فعرف أنّ جدّه قد استيقظ ؛ هو دائما ينام من بعد الغداء إلى الغروب . سيطلب الآن كوبا من الليمون الساخن الذى يشربه الساعة السابعة مساء بالضبط . وسيسب وسيلعن عندما لا تجيبه « أمّ محمد » إلى طلبه سريعا ؛ ولكن - ما حيلتها وباب المطبخ مغلق عليها ؟

وعلا السعال واقترب ؛ ورأى « سوسو » بعين خياله جَدَّه يهبط السلم من الدور العلوى إلى الردهة ، يدور ويلف فيها مناديا ؛

فهبّ من جنب المرأة ، وقفز يعبر الشرفة إلى داخل البيت ؛ فتبعته المرأة دون سؤال ولا جواب .

وهناك ، فى الظلمة المطبقة ، وظلال قائمة تتراقص على الجدران ، رأياه : شيخا ضامر الجسم ، حافى القدمين ، يرتدى جلبابا فضفافا أبيض ، ويدس رأسه حتى أذنيه فى قلنسوة صوفية يترجح فى أعلاها زرّ فى نهايته كرة صغيرة من الصوف .

ولم يكن جَدّ « سوسو » قد أضاء الردهة حيث وقف ينفث حُمَمَ غضبه على كل خلق الله بلا استثناء ، فارتمى « سوسو » على المرأة يختبئ فيها ؛ فأحاطت الزنجية كتفيه بذراعها فى تحنان ، وهمست :

« مم تخاف ؟ أعفريت هو ؟ » .

فأعمل « سوسو » عقله سريعا ؛ وأجاب دون تردّد :

« نعم ... نعم ... هو عفريت ! عفريت والله العظيم ! شبح صاحب البيت السابق الذى ... الذى خنقه اللصوص فى فراشه! » .

فاصطكت أسنان الزنجية من شدّة الرعب ، وتقهقرت ترتجف وتتحسس مواقع قدميها :

« عفريت ؟ عفريت ؟ نهار أسود ! والله ... إنّ بدنى ... ليس خالصا ! دستور ... دستور يا أسيادى ! » .

وصاح الشيخ وهو يزحف نحوهما :

« سوسو ؟ أهذا أنت ؟ » .

فهمس « سوسو » وهو متعلق بالزنجية :

« أتسمعين ؟ أتسمعينه ينادى ابنه ؟ أكبر الظنّ أننا سنرى الآن عفريتا صغيرا يخرج إليه ! » .

فلم تجب المسكينة إلا بغرغرة من حلقها عميقة كالجمل المذعور ؛ وتحشرجت أنفاسها واتسع منخراها ؛ وأيقظ الصياح « أمّ محمد » فى مطبخها ، فهبت تعالج فتح الباب قسرا . وزاد ذلك الطين بلة ، إذ تسمرت عينا الزنجية الجاحظتان على كرة الباب التى تتحرّك وحدها بشدّة وعنف . وتراقصت أمامها شياطين زرق وحمر وخضر لا حصر لها .

وصرخ « سوسو » - ليزيد الجوّ رهبة - صرخة مدوّية من صرخاته الشهيرة ، قفّ لها شعر المرأة المسكينة ؛ ثم أشار « سوسو » وهو يرتمى عليها يحتمى بها - أشار إلى « أمّ محمد » بثيابها الفضفاضة البيضاء ، وقد خرجت إلى الحديقة بعد أن استعصى عليها باب المطبخ ، وصعدت إلى الشرفة تطرق زجاجها ليفتح لها من بالداخل ... وكان هذا المنظر أكثر مما تحتمل أعصاب الزنجية المنهارة ، فهوت على ركبتيها تعول وتنشج بعصبية واهتياج .

فانتهز « سوسو » فرصة اقتراب أذنها منه ، وهمس فيها :

« أترين هذه الجنية السمينة ؟ هى أمى - كانت طاهية ، فانفجر

فيها موقد الغاز فماتت محروقة ! » .

فهوت الزنجية على وجنتيها لطما وخمشا ؛ ثم هبت ضارية ، وانقضت على الباب تفتحه على مصراعيه ، ومرقت منه مروق البرق تفرّ هاربة بجلدها من البيت ... وقفزت السلم الخارجيّ مَشْيَ مَشَى ... وأعملت قدميها ركضا ... تقع وتقوم ... وتقوم وتقع ... وتلملم نفسها وملاءتها ... وهى تصيح بأعلى صوت :

« أنقذونى يا خلق الله ! أنقذونى من بيت العفاريت هذا ... ! دستور يا أسيادى ! دستور يا أسيادى ! » .

ووقف « سوسو » ساذجا ألوفا إلى جانب « أمّ محمد » بعينيه المستديرتين ، ووجهه الشاحب النحيل ، يتمصص متلذذا قطعة كبيرة من الحلوى أخرجها من جيب منامته ؛ وراحت الطاهية تضرب كفا بكف ، وهى ترقب المربية الزنجية ، وقد وصلت إلى نهاية الشارع ، وما زالت تركض .. وتصرخ .. وتقع .. وتقوم ..

فقالت « أمّ محمد » تتمصص شفتيها عجبا ، وتتأوّد بعنقها :

« لاحول ولا قوّة إلا بالله ! ما لها هذه المرأة ؟ مجنونة هى ؟ » .

فقضم « سوسو » سعيدا هانئا قضمة سخية من الحلوى ، ومضغها يلوكها متمهلا بعض الوقت ، قبل أن يجيب دون أدنى اكتراث :

« أظنُّ ذلك ! » .

الجنس الضّعيف

تمطّى الليل خفاشا هائلا كسلان، وبسط جناحيه بتردّد متلفتا ينتظر ـ لا أحد يدرى ماذا ـ قبل أن يطوى الكون كله. وغرقت الطبيعة فى صمت عميق يخيل للمرء أن الدنيا جمعاء قد توقفت عن الوجود.

وتلكأت الساعات طويلة لا نهاية لها كأنما تتخبط، لا تستبين طريقها فى الظلام المطبق. وفجأة شق السكون صياح هرّتين تتشاحنان فى عنف وصخب، ثم أمسكت إحداهما بخناق الأخرى لحظات لم تلبث المغلوبة بعدها أن انفلتت هاربة تعرج فى انكسار، وقد ضمت إحدى قوائمها إلى بطنها، تشيعها الظافرة بسيل من السباب والتهديد. فنبح ضجراً كلبٌ أرمنتى ضخم من الجيرة، تعرفه كلتاهما جيدا، فخرستا على الفور، وانتهت المعركة عند ذلك الحدّ.

فابتسم «حسن» وتراجع عن النافذة يغلقها تأهبا للنوم. وما كاد يخطو نحو فراشه، حتى تسمّر مكانه، ويداه على أزرار منامته يصيخ. لا ـ لم تخدعه أذناه. كأنما شخص هناك على باب

الشقة ينقر عليه بإصبع حريصة . ترى من يكون طارق الليل هذا ؟ ها هو ذا يعيد الكرّة . لم لا يقرع الجرَس ؟

أَنْهى « حسن » حيرته ، وخرج من حجرة النوم إلى الردهة وأضاء نورها وهو مارّ بها ، فغمر المكان ، وشتت الخيالات من الأركان المظلمة .

وتحسس مسدسه فى جيبه قبل أن يجذب الباب يفتحه فجأة لتتعثر داخلة امرأة متلفعة بملاءة سوداء ، تغطى وجهها بنقاب يستره كله .

انتظر « حسن » يرقبها وهى تلملم شتات نفسها وثيابها ، ثم سألها : « من أنت ؟ » .

فلم تجبْه ، بل راحت تحل نقابها وتخلع عنها ملاءتها ، ثم وقفت أمامه مكشوفة الوجه .

كانت امرأة نَصَفا سمراء تميل إلى السمنة ، يغلب عليها قصر القامة . فبسطت ذراعيها وكفيها أمامه فى حركة معبرة ؛ وهى تقول :

« ها أنذى بين يديك يا سيدى ، خالية الوفاض . لا سلاح معى ولا سكين ؛ لا تخش شيئا ، فما جئتك إلا مستنجدة لا متهجمة » .

تقدّمت خطوتين وهى تسائل من فوق كتفها :

« أتسمح بربع ساعة من وقتك الثمين أسرّ إليك أمرا ... أثمن ؟ » .

وغمزت بعينها ، وأبرزت نابها الذهبى فى ابتسامة مغتصبة ، فغضّ الشاب بصره وقال باقتضاب :

« تفضلى ... وأوجزى » .

وتبعها إلى حجرة مكتبته .

وهناك لم تضع المرأة وقتا . فما جمعتهما الحجرة حتى ارتمت على قدمى « حسن » تقبلهما وتنوح مولولة :

« زوجى يا خلق الله ... زوجى ! ويلى من خيانة الرجال ! زوجى « المعلم حنفى » يقترن الليلة بسواى ! الخائن ... النذل ... الجبان ! بعد معاشرة خمس وعشرين سنة وأنا أخدمه ، وأحمله على رأسى أسعى معه للرزق ، ينبذنى حذاء قديما ويعقد على فتاة فى مثل سنّ ابنته يبنى بها الليلة ! آه يا ناس من النار التى تنهش قلبى ! » .

وهبت تدور حول نفسها وتدف بيديها كأنما تستجلب بردا لوقدة شعورها . فدفعها « حسن » مترفقا خارج الردهة وهو يقول بصوت يشوبه ضيق :

« ألهذا السبب تزعجيننى وتقلقين راحتى يا امرأة ؟ اذهبى ... اذهبى عنى ، فما كنت مأذون شرع ولا قاضى غرام » .

— « سيدى ... الرحمة ... الرحمة ! » .

فأجاب « حسن » بحزم :

« الرجل لم يأت ما يعاقب عليه القانون . وليس من اختصاص ضابط مباحث مثل تلك الأمور التى لا تسوّى إلا وديا » .

ثم أضاف :

« الجئى إلى شيخ حارتكم يصلح ذات بينكما » .

فتشبثت المرأة بيديه لا تخلى سبيلهما ، وركزت قدميها لا تتزحزح من مكانها :

« رويدك سيدى ... رويدك ؛ صبرك علىّ ؛ أستحلفك بكل غال ألا تتعجل بطردى ، فان تندم على تمهلك » .

فعقد « حسن » ذراعيه على صدره مصطبرا ؛ أما هى فكفكفت بكمها دموعها التى أغضبته ، وتنحنحت تلقى برأسها إلى الخلف ، فكأنما ألقت عنها الحزن والضعف ، فقد برقت عيناها ، وتحفزت أساريرها ، وتنمرت حركاتها وهى تميل نحوه هامسة بتهكم :

« شيخ حارتنا ؟ وماذا فى استطاعة المسكين أن يفعل حيال الشيطان الذى هو زوجى ؟ » .

ومطت عنقها تتأود به يمينا وشمالا :

« أين الانتقام يا حبة عينى ؟ لمن خلق ؟ ألمثيلاتى الضعيفات المهضومات الحق سلاح سواه تكيل به الصاع صاعين لظالميهن ؟ » .

فلوى « حسن » ذراعها بعنف :

« ماذا فعلت بزوجك يا امرأة ؟ » .

فتقلص وجهها ألما ؛ ولكنها لم تحاول تخليص ذراعها من قبضته :

« لا شيء ... اطمئن » .

ثم كشرت عن نواجذها فى بسمة رهيبة :

« لكنك أنت ... أنت يا حضرة الضابط الذى سيصيبه بسوء ... وأىّ سوء ! »

وقهقهت بضحكة خشنة جوفاء لا أثر لمرح فيها ، كصدى حجارة تتساقط داخل إناء نحاسى صدئ .

فتململ « حسن » مغيظا من غموض المرأة وتلاعبها بالكلام :

— « أفصحى » .

وتجهم وجهه :

— « لقد بدأت أضيق بك وبروايتك التى لا أظنها إلا فارغة القالب والمعنى » .

فعلا صوت المرأة وبح فى انفعالها وثورتها :

« فارغة ؟ خذ عندك إذن ! » .

وحشرت رأسها بين كتفيها السمينتين كمدفع يتراجع لينطلق ، ثم اندفعت ، بكل جارحة فيها ، قذيفة تنفث حممها :

« القشّاط ... كبير تجار المخدرات ... هو عينه زوجى « المعلم

حنفى » ، الجزار الأشهر على سن ورمح الذى لم يره رجال الضبط ولا عرفوا شكله قط ، إن حفظوا اسمه عن ظهر قلب . دوّخ رجال المباحث سنين طوالا وكان الفضل فى إفلاته كل مرّة - ولا فخر - لى أنا وحدى . فلقد كنت دائما ولا زلت ساعده الأيمن ، نكوّن معا شركة لا ثالث لها . إذ أنى رفضت إشراك أحد معنا يكفى أن تخونه شجاعته مرة فيكون هلاكنا وضياع هيبتنا إلى الأبد » .

— « هكذا ؟ » .

وسحب « حسن » مقعدا جلس عليه يتأملها باهتمام .

— « إى والله . وقد ثبت بُعد نظرى وحسن تقديرى للأمور ، فلم يحدث قط أن هاجمتنا قوة من رجال الشرطة . كيف ولم تحم حولنا أى شبهة ؟ حتى أهل حارتنا لا يعلمون من أمرنا شيئا » .

فحاول « حسن » إخفاء دهشته وهو يسألها :

« كيف ذلك ولا يخفى عادة على جارة شأن من شئون جارتها ؟ » .

فارتفع حاجب الداهية ، وربتت كتفه كأنما تحابى طفلا :

« اسم النبى حارسك . شباب لم تزل والله . ولكن الحق كله معك فى تعجبك فلن يخطر لك أبدا على بال نظام معيشتنا الدقيق الذى وضعته بنفسى وسرنا عليه لانحيد عنه قيد أنملة . أولا : أقمنا

فى حىّ واخترنا زبائن من حىّ ... بل أحياء أخرى بعيدة لانطلعهم على محل إقامتنا لكثرة تنقلنا ولكى لايستطيع أحدهم أن يسعى بنفسه وراء « راتبه » ولو تأخرنا عنه أياما لسبب أو آخر . ثانيا : على الرغم من إدمان معظم أهل حارتنا الحشيش لم يكن زوجى - الذى اشتهر بالصلاح بينهم - يشترك فى اجتماعاتهم ، ولم أسمح أنا مرة بعقد جلسات - ولو ودّية على سبيل المحاباة - فى بيتنا » . ثم ضحكت وأردفت : « فأنت ترى أن سمعتنا قشدة وشهد فى الحى كله ! » .

فازدرد « حسن » ريقه ، وسألها كأنما يتلقى درسا عن أستاذ : « ولكن البضاعة ... كيف ... أعنى ... من كان يتسلمها منكما » ؟

— زوجى المعلم حنفى » نفسه . كان يسافر فى أنحاء البلاد لشراء عجول يذبحها و يبيعها فى حانوته فيعود بها هى و « الرزم » ... أما الرحلات « الصعبة » فكنت أقوم أنا بها . فأستخفى فى زى قروية تارة ، وحضرية أخرى ، وابنة بلد أصيلة بملاءتها الحريرية السوداء وتثنيها تارة ثالثة ، وأروح أذرع أرض الله من « الإسماعيلية » إلى « الإسكندرية » ومن « دمياط » إلى « رشيد » أتجر فى السمن وأدس فى صفائحه « الترب » أو أشترى « بيعة » بطيخ وشمام أفرغ جوفه

وحدى فى ظلمة الليل وأملأه حشيشا . إلى آخر تلك الأساليب التى لايعجز عقل مثلى أن يتمخض عنها » .

وصمتت برهة ترمقه بنظرة تلونها سحابة من السخرية شفافة . ثم سألته بدورها :

« ألا تسألنى أيضا كيف كنت أوزع البضاعة » ؟

فزم «حسن» شفته ولم يجب ، لكنها تبرعت بالتفصيلات كمن يمنّ بحسنة على سائل :

« كنت أفرش مشنة بالحشيش ، وأهيل فوقه حزم الفجل والجرجير ، ثم أتمايل بها على رأسى بنت ريف ذات دلال ـ مرة لأعيدها . ومرة غيرها أحشو ملء حلة كرنبا أجوب بها الحارات منادية فيخرج المدمنون كالجرذان من أوكارهم ويتبعوننى عن بعد أفرادا وجماعات حتى أحط رحلى فى زقاق أختاره لساعتى ربما لم تطأه قدمى من قبل ، فأجلس القرفصاء والحلة أمامى أبيع كرنبا محشوا بالحشيش . ولم يكن رجال الشرطة يعيرونى أدنى اهتمام ، فليس هناك وجه للغرابة البتة فى امرأة لم يروها من قبل ـ ولن يروها بعد ذلك أبدا ـ مهلهلة الثياب تبيع العمال محشوا ساعة الظهيرة عند خروجهم من المصانع » .

فتشاغل « حسن » بقلم رصاص يخط به خطوطا عرضية على

ورقة أمامه وهو مطرق ، كله آذان . أما هى فبسطت كفها السمينة تعدّ على أصابعها :

« ومرّة أنا شحاذة أدبّ على عصا مجوّفة ملأى بلفائف « الغالى » ومرة أنا طبالة فى موالد الأولياء أينما كانوا : فى « دسوق » ، « طنطا » ، « إنبابة » ، « الأنفوشى » . وفى أفراح بنات العمد والأعيان أنا « المعلمة » رئيسة فرقة الراقصات والمغنيات أحيي الحفل وأحمل إلى رب الدار « راتب » عام ، وأقبض الثمن وأعود به إلى زوجى » .

ثم تنهدت بحرقة :

« أهلكت روحى تعبا ، ونهكت جسدى هرولة هنا وهناك . وعلام هذا كله ؟ ماذا أفدت ؟ ماذا جنيت ؟ » .

وتمصصت شفتيها :

« على رأى المثل : قال ضرّة وحياة مرّة ! »

ثم هبت مسعورة ذئبة ضارية وقد تقلصت سحنتها :

« ولكن أبدا ... ومن خلقك ! أيأكلنى لحما ويرمينى عظما ؟ »

ثم ضربت صدرها بقبضتيها كقرود الغاب عند النزال : « أنا » النمسة « والأجر على الله ! » .

فقاطعها « حسن » :

« قصارى القول ، لقد حكمت عليه لخيانته وجئتنى واشية » .

فلوحت بيدها مولولة :

« عينى علينا ياصنف النسا...لاحول لنا ولا قوّة...مساكين!» .

ثم أضافت :

« هو الذى حكم على روحه يا حضرة الضابط » .

فابتسم « حسن » :

« تمام . ولكن كيف تثبت عليه التهمة وليس فى داره حشيش ، ولا يحمل معه شيئا منه كما تقولين ؟» .

فتمايلت تيها وغمزت بحاجب ولمزت بعين :

« توكل على الله وعلىّ » .

ثم سألته : « كم الساعة الآن ؟ »

فلما أجابها :

« الواحدة بعد منتصف الليل »

... عم وجهها بشر وهتفت :

« هذا ومن خلقك خير وقت وأنسبه للقبض على زوجى ... الآن وبسلامته يجلس مزهوا منتفخ الأوداج وسط ضيفه فى حفل زفافه » .

ثم جذبت « حسن » بغتة من ذراعه بانفعال كأنما أغضبتها

الصورة التى رسمتها بنفسها ، وقالت تحضه على الخروج :

« هيا ! يطيل عمرك ربنا ... هيا بنا يا حضرة الضابط إلهى ينجيك لشبابك ولا يحرق لك قلبا ! » .

ونفثت عن فؤاد كليم :

« هيا قبل أن يفلت الطير ! » .

وفحّتْ رقطاء هائجة :

« الفاجرة ! قال تأخذ طيرى وتنام على خيرى ! » .

ووثبت تنشب أظفارها فى الهواء تنهشه وتمزعه .

« أبدا ... لن يكون ! أنا على وجه الأرض ويفلت من يدى ؟ أبدا ... أبدا ! » .

ـــ « كفى يا امرأة عن الصخب والزعيق . الدنيا ليل وصوتك العالى أسمع الجيرة لا ريب . ماذا يقول الناس ؟ أهدئى شيئا ، وكلينى : من أدرانى أن بلاغك ليس كيديا ؟ لن أخطو خطوة معك قبل أن تتجمع لدىّ الأدلة الكافية المستوفاة » .

فدست المرأة على الفور يدها فى عبها وأخرجت رزمة ورق دفعتها إليه وهى تقول :

« ها كها : كشوفا ببيان الوارد إليه من حشيش خلال سنى اشتغاله بالتجارة فيه ، وأسماء التجار الذين باعوه إياه ، وإمضاءاته

جنبا إلى جنب مع إمضاءاتهم » .

فسحب « حسن » من بينها وريقة زرقاء استرعت انتباهه ، وغمغم وهو يحاول قراءتها :

« وتلك ؟ » .

ـــ«آه ... هى رسالة بخط يد زوجى إلى تاجر فلسطينى يطلب منه فيها صنفا بعينه من الحشيش لشخصية كبيرة من زبائن حانوت الجزارة الذى يستتر وراءه . وكان قد بلغنى نبأ عزمه على الزواج بغيرى وطلاقى إكراما لعينيها . فكظمت غيظى ولم أطلعه على وقوفى على خيانته وغدره ، وقررت الانتقام فى الخفاء . عينى علينا صنف النسا ... جنس ضعيف !.. »

وتمصصت شفتيها حسرة وألما . فقاطعها « حسن » :

« وبعد ؟ » .

ـــ « فلما أعطانى زوجى الرسالة آمنًا لألقيها بنفسى فى صندوق البريد كالمعتاد ، احتفظت بها واستكتبت كاتبا أجيرا نسخة طبق الأصل منها أرسلتها ؛ إلا أنى غيرت تاريخ اليوم الذى يطلب فيه زوجى وصول البضاعة إليه ، حتى يوافق يوم زفافه بالضبط » .

وقهقهتْ بجذل وتشفّ ، ثم أضافت :

« وناهيك ما حدث » .

ـــ « ماذا حدث ؟ » .

ـــ « ما وصل التاجر الفلسطينى بالصفقة إلى « السويس » حتى أرسل برقية إلى زوجى . فجنّ جنونه ، وأسقط فى يده ، وجاءنى مهرولا يسعى إلى صلحى ، واندفع يقبل يدى ورأسى ، ويتوسل ويلحف فى الرجاء أن أسافر أنا لتسلمها مكانه ؛ فرفضت طبعا وأسمعته وإخوتى والحبيبات من جاراتى ما يعجبك من ألوان السباب المنتقاة ـ التى تثلج الصدر ، وتزيل عن القلب غمته !

فاضطرّ هو إلى السفر صباح يوم زفافه ـ اليوم ـ وتسلم البضاعة وعاد بها إلى بيته . أتسمعنى يا حضرة الضابط ؟ البضاعة فى بيته الآن ! لم يجد بالطبع الوقت لتصريفها فأخفاها لديه ـ لأول مرّة فى حياته ـ حتى يبنى بعروسه ... وصرّت على أسنانها تضغط بيدها قلبها : « وحتى يرى له فيها أمرا من غده ! » .

وكان « حسن » يتصفح الأوراق مليا خلال حديثها . فما فرغت من روايتها حتى دس المستندات فى جيبه ، وقد ثبت له خطرها ، واختطف معطفه وطربوشه وخرج وهو يصيح بالمرأة :

« هيا بنا ! سأمرّ فى طريقنا على المركز ، أصطحب قوّة بعد

أن أستصدر أمرا بتفتيش بيته فورا ! » .

فتبعته ، متنمرة خطواتها ، تقول :

« ماذا كان فى وسعى أن أفعل غير ذلك ؟ الآن سيتشاءم بالعروس عندما يقبض عليه ليلة زفافها فيتركها ويعود إلىّ - إلى أحضانى - أنا ؛ رفيقة عمره وعمله ! وعندما يخرج من السجن سيجدنى فى انتظاره على الباب بفرقة موسيقى « حسب الله » المعتبرة ؛ وطاقات الفلّ والريحان يحملها إخوانه شجعان الحىّ ، والأغاريد تنطلق ، والطبول تقرع ، والرقص قائم على قدم وساق - فوق العربات - منى ومن صاحباتى ! » .

ثم تنهدت ونظرت حولها ، وهما يحثان السير فى الليل البهيم مع ثلة الجنود التى انضمت إليهما ، وغمغمت كأنما تحادث الأشجار المستخفية فى الظلال :

« وسيجد من كتفى هذه ... » - وربتتها - « خير متكأ لرأسه الكليل ! » .

فزمجر جندى متجهم السحنة كث الشارب والحاجبين :

« ألا تغلقى فمك الكريه يا امرأة ؟ » .

فاستدارت إليه :

« مالك ومالى ؟ هل سلطك أحد علىّ ؟ » .

فاستدارت إليه : مالك ومالى ؟ هل سلطك أحد علىّ ؟

— « عجيبة ! أتحاجّينى ؟ » .

فشهقت تصيح بسخرية :

« ولِمَ لا ؟ أمحرّم هذا ؟ أممنوع ؟ أمحال ؟ » .

فتدخل « حسن » :

« صه ... صه ! اسكت أنت وهى ! » .

فاقتربت « النمسة » منه بتأدّب :

« يحميك لشبابك تطمئنى ... أيسجن طويلا ... زوجى ؟ » .

فضحك « حسن » ضحكة صغيرة :

« ألم تبلغك الأحكام الجديدة ؟ خمسة عشر عاما ، أو خمسة وعشرين عاما ، أو ... إعدام ! كلٌّ ونصيبه ! » .

فتوقفت المرأة بغتة عن متابعتهم حتى سبقوها مسافة ، تنظر حواليها ، حيوانا سقط فى فخ ، مرّة أمامها ومرّة إلى يمينها ، ثم إلى شمالها ، وطويلا .. خلفها ، لا يدرى أحد بالضبط ما يدور بخلدها .

فأشار « حسن » إلى جنوده الذين اصطفوا إلى جانب ، على حين صاح يناديها :

« ماذا حدث ؟ أخدش قدمك شىء ... شوكة مثلا أو قطعة زجاج ؟ بربك أسرعى حتى لا يفوتنا الزفاف ! » .

فانقضت للحظتها تدبّ بِغلّ تنهب الطريق نهبا :

« صدقت . هيّا ... لنسرع ! إلـهى لا يحرق لك كبدا ! » .

ثم أردفت تتحدّث لمن يودّ أن يسمع دون استثناء :

« وماله ... السجن ؟ على الأقل أعرف مكانه ؛ لا يروغ منى ! وكل أسبوع أزوره ، وأحمل له من الطعام أطيبه ومن الفاكهة أشهاها ! أمّا إذا شنقوه ... » وابتسمت فى الظلام تتنهد بارتياح : « فهذا يكون خيرا ... إى والله ! فحينئذ لن تطوله قوية العين « لواحظ » بل تنزوى بحسرتها ، وسوء فألها ، وقلة حظها ؛ على حين أقيم أنا له مأتما فخما من أوّل الحارة لآخرها ، وأنصب سرادقا فسيحا آتى له فيه بكبار المقرئين ، وأزور قبره محملة بالفطائر والبلح أوزعها صدقة على روحه ! حقا ... أليس هو زوجى - أنا ؟! » .

طبع الغلاف بمطبعة ابو فاضل ـ تليفون ٥٥٥١٣

K

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 072236613